طلعة البدن

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مسعد أبو فجر

طلعة البدن

روايـة

دار ميريت
القاهرة 2007

طلعة البدن

طلعت البدن

رواية

مسعد أبو فجر

الطبعة الأولى 2007.

(c) دار ميريت

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 5797710 (202)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف: **أحمد اللباد**

المدير العام : **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **2006/17456**

الترقيم الدولي: **977-351-328-9**

أتلمس تقاليد بارزة فيَّ
قبل الزمان والمكان والحياة والوجود ..

فرناندو بيسوا

I

كنـــتُ ماراً بسيارتي، على الطريق الرئيسيّ، الذي يَحُول بين الجـــبل الشـــاهق، وابتلاع نويبع. نظرت في المرآة؛ فرأيت الشج كالختم على جبهتي. زارت أمي الفقير، حين كنت في بطنها، ولمّا رآها مقبلة، قال مبتسمًا: جاكي ربيع.. ولكن أمي، التي عندها من الأولاد ما يسد عين الشمس، لم يشغلها الاسم، أو لنقل إنها أرادت، أن تضرب عصفورين بحجر، أن تسميني ربيع كما بشرها الشيخ، وأن تُـــنفذ الوصايا. إذ يقال أن المرأة التي تلد ذكرًا، تُسميه (لبّاد) ثم تنتظر حتى يأتي أول عيد، فتختار له الاسم الذي تريده.

أسمتني لبّاد.. وفي صباح يوم العيد، كان عيد أضحى، نفذت بشارة الشيخ، وأسمتني ربيع. ولمّا ولدت أخي بعدى ميتا، أدركت الخطأ الذي وقعت فيه. ملأت (السبتة) سكرا وشايا، وما تيسر من طوفـــي، وأسرعت نادمة إلي الفقير. مكثت في بيته ثلاثة أيام. في اللـــيلة الثانية، لفتت نظرها واحدة من زوجاته، إلى أنه أعلم منها بالوصايا، وفي الثالثة سَمح لها بالدخول إلى خلوته.

حيـــن رآنـــي في حضنها، أشار نحوي بإصبعه السبابة: هذا ربـــيع.. ولكي لا يخطف ملك الموت أخوتي، الذين ستلدهم بعدي، وصف لها الوصفة، التي تركت الشج في جبهتي حتى اليوم.

بُعيد الفجر، وفي الوقت، اللي ما تعرف فيه الكلب من الذيب، أيقظتني.. أحكمت ربط الغترة على رأسي، وتناولتني من ذراعي، هابطـــة إلـــى القرية. تسللنا بين البيوت، حتى وصلنا بيتا له باب خشـــبي قديـــم، على أحد ألواحه أثر كف من الدم. أوقفتني قدامه، وكأنهـــا تـــريد أن تقرعه، ثم رفعت غترتي عن جبهتي. أمسكت برأسي، وبغتة لطمت جبهتي بالباب، صرختْ.. تحسستُ وجهي؛ ولمّـــا تـــأكدتْ أن الـــدم سال من قورتي، ارتدتْ عائدة، وتركتْ وراءها نداءا عاليا، منطلقا من داخل الدار: مين؟

مفزوعاً كففتُ عن تلمس جبهتي، حين رأيت الدخانٍ يهب من بـــوز الســـيارة. أوقفـــتها وفتحت الكبوت بسرعة. دلقتُ ماءً على الردياتـــير، وانتظرت حتى تبرد. عدتُ إلى مقعدي، أدرتُ المفتاح فكركـــرتْ السيارة قبل أن يئز موتورها، كانت رجلي اليمنى على الدواســـة، واليســـرى مدلاة على الإسفلت، أحكها لأجفف العرق، الـــذي أحســـه متكلســـاً على باطن قدمي، حين رأيته صاعدًا من القـــرية، يحمل كيسين بلاستيكيين، سألته عن أحواله، في محاولة لتزييـــت مقابلة الصدفة هذه، ورغم أن عساف كان يحكي سعيداً، بـــأن له كامبا في راس الشيطان، واصفا الطريق إليه، إلا أني لم أهـــتم بحكـــيه، فالمكان الذي يصفه وعر، ولو فكرت في زيارته، سأضـــطر لتوقـــيف سيارتي على الأسفلت، والوصول إليه راكبا جملا.

مللتُ العمل بائعا متجولا؛ فقررتْ أن أجرب حظي في صيد الصقور، كنتُ جالسا، في سفح هضبة التيه، أراقب الطيور، رأيتُ

طائر أم غرير، ألقيت نحوه بحجر، طار قليلا، ثم عاد يتقافز على رجْـل واحدة، تركته وقلبتُ نظري في الفراغ المحيط بي، رأيتُ البدويّ قادما وهي معه، الكاميرا التي تتدلى على صدرها، جعلتني أعـتقد أنهـا سـائحة. ولكني لم أبذل كثيرَ جهد، حتى تبينت أن غاليـت، تطـوف الصحراء الممتدة على مرمى البصر، تمارس هوايتها في التصوير.

حيـن أحسّ الدليل برغبتي فيها، قبَض إيجاره وتخلص منها، كأنـه يرمي حِملا ثقيلا من على ظهره، وقبل أن يمضي مبتعداً، فقتُ على الحيص بيص الذي أوقعتُ نفسي فيه، هممت بأن أنادى علـيه، لـولا رغبتـي المحمومة فيها، فوجودها في هذا المكان ممـنوع، ولـيس بإمكانـي أخذها إلى مضارب قبيلتي، سيجلدني أقربائي بألسنتهم!!

كـرت فـي رأسي محطات كثيرة جبنت فيها. أدركت كم تغلغـل الجبـن في نفسي، فرغم معرفتي بسياسة "اضرب مسعود يخرا مبارك" إلا أنني دائما أختار أن أظلّ مسعودا. مثلا لم أشارك أقربائـي، يـوم سـدوا بأسـلحتهم الطـريق إلى معبر العوجي، وتحججـت بمشـغولياتي، ولو فعلت لما آذاني ذلك اليوم الضابط، حين أوقفني في القرية القريبة من مضارب قبيلتنا.

ومشـاهد الجبـن تكـر فـي رأسي، كمسبحة بين أصابع متصـوف، لمـع عسـاف فـي ذهنـي، هذا هو يا ولد يا ربيع: الكامب(...) ولأن عساف سيطل برأسه في محطات كثيرة من هذا السرد، فسأقص نتفا من أخباره:

جـــاءت للفقـــير بنـــت مجنونة، وبعد أربعين يوما شُفيتْ؛ فخـــيرها أن تـــبقى عـــنده أو تذهب لأهلها، اختارت البقاء عنده، واشـــترطت أن يكون وجودها ذا صفة. فتزوجها.. وبعد أقل من ســـنة هاجمـــتها آلام المخاض، وهى سارحة بغنمها في المرعى، حاولـــت العودة إلي بيتها.. المشي منهك، والآلام تصّاعد وتيرتها، لـــم تســـتطع أن تكمل، كانت حذاء النبقة، هرولت إليها، أمسكت بجذعها، وباعدت بين ساقيها، فاندلق من بينهما عساف.

بعـــد أكـــثر مـــن عشـــرين عاما، سيعمل عساف طاهيا في الكامـــبات المتـــناثرة علـــى شاطئ نويبع، ولن يكون سعيدا بعمله هـــناك.. فـــيما بعـــد أخبرني " كنت أتردد في فترات راحتي هنا، تعرفـــت علـــى توماس، أتينا مرة، انبهر بالمكان، وأشار عليّ أن نتخذ موقعا صغيرا، نستريح فيه، حين نأتي في المرات القادمة".

بهـــدوء أخـــذت الحياة تدب في المكان، تحول إلى كامب له زبائـــن مـــن جميع أنحاء العالم، كان معظمهم من عبدة الشيطان، أتـــباع كنيسة د. فاوست، والباقون كالمجانين: فنانون، ورسامون وموســـيقيون ونحاتون، يقضون فترات طويلة من السنة، دون أن يلمـــس أجســـادهم، غـــير الماء المالح، لحظة يرمون أنفسهم في البحر.

فاجأنـــي مـــنظرهم في البدء، كأنهم هبطوا من كوكب بدائي، بشـــعورهم الطويلـــة، المرخـــية بين أكتافهم، وملابسهم المقطعة، يتسكعون طوال النهار، بين الجبال وعلى الشاطئ، ثم يعودون في

المســـاء، يرقصون، يأكلون ويشربون .... ولكن ما فاجأني أكثر، هو وجود عودة بينهم.

مـــن سنوات قابلته صدفة في الجامعة، كان يقدم أوراق قبوله فـــي قسم الفلسفة، و كنت أتسلم شهادتي من قسم التاريخ، لاحظت أنه تغير، صار طويلا جاوز **180** سنتمترا، وجهه بدا أجمل منه حين كان طفلا، وشعرت أنه لم يعد ذلك الولد الضعيف، الذي كان الأولاد يؤذونه صغيرا. نويت أن أفعل ما يذكّره بي، خاصة وأنني سأقضي يوما آخر في الجامعة، لأتمكن من تسلم أوراق تخرجي.

ذهبـــنا إلـــى المتحف المصري، وقف طويلا أمام اللوحتين **111**و **112** يظهـــر في الأولى، الملك سنفرو قابضا بيسراه على ناصـــية بـــدوي جاث أمامه، وبيده اليمنى هراوة لضربه، وحول الصـــورة كـــتابة مفادها "سنفرو الإله العظيم فاتح البلدان وواهب القـــوة والثـــبات وراحـــة الـــبال إلى الأبد" وفي اللوحة الأخرى، صورته في ثلاث هيئات، واحدة منها لابسا تاج مصر، وقد قبض بيمناه على عصا لضرب البدوي. امتعض عودة، فغادرنا المتحف ســـريعا، وقضـــينا نهارنا، وجزءًا من الليل نتمشى في الشوارع، صـــامتين نـــتفرج ع البنات، ونتأمل الفاترينات، ثم استرحنا على القهوة، التي يجلس فيها حميد، عرفته على حميد وأوصيته به.

ورغم ذلك، لاحظت أنه يشيح عينيه، كلما التقتا بعينيّ، هل كان هذا بسبب إيذاء أقربائي له حين كان صغيرا؟! ربما.. لكن أنا لـــم أؤذه، كنـــت أكبره بسنوات، إلا أني لم أكن أبعد أقرباني عنه، حين كانوا يسخرون منه، ويعايرونه بجدته الفلاحة.

***

فـــي رأســـي كلام عن العوامرة، عائلة عودة، سمعته كثيرا بـــروايات مختلفة، سأختار منها الرواية الآتية: تجاوز جدهم المائة لمّا ماتت عجوزه، صمم أن لا يقابل ربه أعزب، وطلب من أبنائه أن يبحـــثوا له عـــن عروس بكر، لم يجدوا قبائلية ترضى الزواج بالشـــيخ المســـن، ولأنهم خافوا غضبه، أخذوا له ابنة فلاح، كانت القبيلة قد استأجرته، ليدهن إبلها من الجرب.

في صباح اليوم الثاني، وبعد أن دخل بعروسه، وجدوه ميتا، عـــادت العـــروس إلـــى أهلها، ظنوا أن الشايب لم يقربها؛ فزفت لعـــريس جديد، وبعد تسعة شهور وضعت ولدا. لاحظ الناس إيذاء زوج أمـــه له، كـــتفه يوما أمام الديوان لشيء لا يستحق؛ فتدخل واحـــد مـــن أولاد الشايب، قال الرجل: ولدي وأنا حر فيه. ما هو ولـــدك، ولـــد أبونا. احتكموا للنسابة، وصلوه بُعيد مغيب الشمس، فأبقـــاهم للصـــباح. بعد أن فطروا وشربوا القهوة، قال كل فريق حجـــته، نظـــر الرجل للغلام مليا ثم قال: اذهب للوادي، تلقى غنم وراها بنت سارحة، هات خروف منها وتعال.

جـــاء الصـــبي بالخـــروف يحملـــه على كتفيه؛ فذبح النسابة الخـــروف، وقـــبل أن يسلخه، جاءت ابنته تبكي خروفا سطا غلام علـــيه، قـــال الأب: صفيه لنا. فأنشدت قصيدة طويلة تصفه فيها، ختمـــتها بقولهـــا: هاري ولد هارية، أبوه شايب وأمه جارية. فقال النسابة: حكم اللي اختلفتوا فيه سمعتوه بآذانكوا.

عـــادوا بأخيهم، الذي خلّف عائلة تشبه باقي أبناء القبيلة، عدا عيونهم الزرقاء، التي يصفها الناس بأنها تشبه عيون قطة، مختبئة في سياج صبر.

***

اشـــترى له جـــده كبرًا جديداً، لبسه عودة واتجه سعيداً إلى مربع الأولاد. سخروا منه ومن كِبره، فلم يقربه عودة بعدها أبدا. ســـأله جـــده: وين كبرك.أجاب وهو يبكي الأولاد يعايرونني. قال الجـــد والغضـــب علـــى ملامـــح وجهه: حينما يعايرونك قل لهم (جربن).

انسحب عودة متوجها إلي الأولاد، منتظرا اللحظة التي يقول لـــه فـــيها واحد منهم يا ابن الفلاحة. وما أن أقبل لاهثا حتى ناداه أحدهـــم: ليش بتلهث يا ولد الفلاحة؟.أنا لست ولد فلاحة .. أنتم.. ثـــم اندفع بكل قواه يردد جربن.. جربن.. جر.. وقبل أن يكمل، كان مطروحا على الأرض، والركلات تأتيه من كل صوب، حتى ســـال دمـــه؛ فصرخوا في وجهه: امش يا ابن الفلاحة. قال عودة وهو ينفض التراب عن ثوبه المقدود: إن كنتم ارجال تعالوا واحد واحد. ومسح ببطن يده الدم من على فمه. قال أصغر الأولاد الذي كان أقساهم: عيلتك فلاحين، طيزهم حمرا مثلك .

لم يتبين عودة بقية ما قاله بالضبط، انسحب مخلفا وراءه بقايا قميصـــه. تســـاءل جـــده فـــزعا: وش اللي صار لك؟. الأولاد.. ضربوني لما قلت لهم جربن.. وعايروني بجدتي.

أما أمه؛ فتظن أن غياب أبيه هو ما يغري الأولاد بالاستهانة بـــه؛ فـــتزعم له أن أباه كان في الجيش حينما قامت الحرب، وهو هناك في مصر وحين تنتصر سيعود. كل القبيلة تعرف أن الأمل في عودة أبيه ضعيف، والأم كذلك، ولكنها صدقت نفسها من كثرة ما رددت على أذن عودة، أنه سيعود. آخر مرة رأته حين امتلأت السماء بالدخان، وصار أزيز الطائرات المغيرة مرعبا، قفز سلمان وفك قيد الجمل البارك أمام بيت الشعر، وضع امرأته الحامل على ســنامه، وفـــي حضـــنها أصغر البنات، بينما علق البنت الكبيرة وراءهـــا وشبك يديها بظهر أمها، لسع الجمل بمطرق اللوز على مؤخـــرته، أمرها أن تسبقه إلى البرص، وضع كيس الدقيق على ظهـــره، وطلب من أكبر بناته، أن تسوق وراءه العنزتين، وتمسك الإبـــريق فـــي يدها. سايرت البنت الصغيرة أوامر الأب المنطلقة كالرصاص، وأدتها بسرعة وهو يشجعها : هاه.. يا بنت أبوكي.

انطلـــق ســـلمان إثـــر امرأته وبناتها الى البرص، بينما كان الشايب تائها، بين ما سمع من الجنود المصريين، المنتشرة خيامهم بين مضارب القبيلة وحواليها، أن الذي في السماء مناورات، وبين صراخ سلمان المتوالي، المنصب في أذنيه، بين اللحظة والأخرى: هـــذه جهـــنم الحمـــرا.. عليك بالبرص يابياه. التقط غليونه وعلق الإبـــريق على ظهره بعصاه. نظر إلى السماء الممتلئة دخانا فوق رأســـه، جال البر بعينيه، لاحظ ربكة الجنود، عرف أنها الحرب، ولكـــنه لـــم يـــر قتالا. ناداه الجنود: متخفش يا شيخ العرب، دي مناورات، إحنا بناور.

فـــي الطريق رأى دبابات تحمل الأعلام العراقية، تسير حذاء البحر متجهة جنوبا، عرف أنها دبابات إسرائيل، حفر حفرة تحت عـــاذرة، وكمـــن فيها. في المساء خرج من مخبئه، وسار محاذرا حتى ولج البرص. كان البرص بكثبانه الرملية العالية التي تفصل بين البحر والصحراء، تنساب منه حركة محاذرة، صار ينتقل من كثيب إلى كثيب، وصله صوت جلبة، فأحس بالأمان.

ســـمع نحـــنحة رجل، توجه نحوه، وسأله عن سلمان، ولأن الرجل لم يعرف مكانه، طلب منه أن ينام جواره، والصبح يصير خـــير يـــا أبو سلمان. شكره وواصل بحثه. ظل يسأل حتى وجده مقـــيما في مكان ناء، متخذا من بطن كثيب مناما له ولبناته. أزاح الشـــايب وجه التراب المضمخ بالندى، وضب في الرمل قرموسا، وكـــوّم في طرفه وسادة، وضع فوقها حذاءه، ثم تمدد ملتفاً بعباءته ونام.

مـــع انـــبلاج الفجر، أيقظه الصوت المزلزل، قفز من نومه، الغبار يملأ المكان ويعيق الرؤية، رغم لمعان الأرض تحت ضوء القمـــر، رأى سلمان، يتحسس بناته، ولما تأكد من سلامتهن، هرع للبعـــير، وجـــده مرمـــيا على جانبه والزبد حول شدقيه، وحبيبات الرمل تبتلع الدم المنداح من بطنه، تيقن من موته، نظر إلى شوال الدقـــيق المنـــبعج متألما، عاد ليشعل نارا، نهره الشايب: لا توقد النار.

فـــي الصباح علا صراخ البنات، فقامت الزوجة تبحث عما يأكلنه، نهرها سلمان: عودي يا مرة إلى بناتك وانملي بينهن. اتجه

إلـــى الـــبر، حاولتْ أن ترده، رفع يده في وجهها: ابلعي لسانك يا مرة.

جلـــس بجـــوار سكة الحديد، رمق الطريق قبل أن يجتازه، انطلـــق جهـــة البيـــت، الـــذي ترك فيه برميل الدقيق، رآه مقلوبا والدقـــيق يغطـــى الرمل، نظر إلى خيمة الجنود وجدها محترقة، ســـيارة التعيينـــن مقلوبة بجوارها، وعلب البازلاء وأكياس الأرز والعدس ملقاة على الرمل، جلس على ركبتيه، مسح المكان بعينيه، تـــأكد من خلوه، قفز بسرعة، التقط كيس أرز وعلبة بازلاء وفرّ، رأى الجيـــب آتـــيا نحـــوه، أرتد سريعا، حاول أن يختبىء خلف السيارة، سمع دوي الرصاص، أحس بسخونة تنساب على ظهره.

***

كَـــثُر الحديـــث حـــول ســـلمان، وصار الكل يدلي بدلوه في الموضـــوع، الـــبعض قـــال اليهود قبضوا عليه، واقتادوه أسيرا، وسيســـلمونه إلى مصر، مثلما فعلوا مع أولئك الذين قبضوا عليهم في حرب **56**، والبعض الآخر يقول، إن اليهود رأوه تحت إحدى العربات؛ فاردوه قتيلا، اعتقادا منهم بأنه كان يدمر عربات الجيش المصري التي تركها وراءه في العراء، ولكن آخرين يقولون، أنه قابل مجموعة من الجنود المصريين، الذين طلبوا منه أن يعبر بهم الصـــحراء حتى القنال، وبأنه قد ذهب معهم، البعض يرد عليهم: كـــيف يذهب معهم، ويترك بناته جائعات في البرص.. لا.. لا.. هـــذا كـــلام مـــاهو مضـــبوط. حتى لو طلب منه بعض الجنود

توصيلهم، فسيكتفى بتعريفهم الدرب، وبعض الوصايا التي تساعدهم على معرفة الشمال من الجنوب ثم يعود لبناته.

توارى خبر غياب سلمان، بعد كثرة الذين فُقِدوا أو وجِدوا ميتين على حافة البرص. دار الكلام حول اليهود، وبأنهم لن يستمروا طويلا، وستجبرهم هيئة الأمم على الانسحاب، مثلما انسحبوا بعد حرب **56**.

رمت طائرة أوراقا، على بعض المتجمعين في البرص. خاف الناس من لمس الورق، وأوصوا بعضهم بعضا بعدم الاقتراب منه، وتردد بينهم، أن واحدة من الورق وقعت، وهي نازلة، على ورك أبو دهيش؛ فصارت ورك الرجل قطعة حمراء، ثم تقشرت عن لون اسود شديد السواد، وصارت تتقيح حتى بان العظم، ولم تشفَ إلا حين غسلوها ببول الجمل. تحاشى الناس لمس الأوراق، وإن عثرت قدم أحدهم بواحدة، عاد مسرعا ليغتسل ببول الجمل، لذا فقد صاروا يربطون القرب، على أفخاذ الإبل لتبول فيها، وصار الإبريق من بول الإبل، يقايض بقدح من الدقيق.

كفت الطائرة عن رمي الورق، واكتفت بأن جالت صباحا، مقتربة من الأرض، حتى جفلت الإبل، وارتبكت الماعز، وعلا ثغاء الجديان؛ فعادت للارتفاع قليلا، ثم انطلق منها صوت، ينادي عبر ميكرفون، طالبا من الناس العودة إلى بيوتهم. تلكأ الناس وصاروا يذكرون بعضهم، بأن اليهود لن تطول أيامهم في سينا، وسيرحلون بعد شهور، مثلما رحلوا في **56** وأن من يطيع أوامر اليهود، سيقطع المصريون رقبته حينما يعودون. ولم ينس البعض

أن يُذكّـــر بالخوازيق، التي أجلس المصريون عليها، كل من دبر حاله مع اليهود، على إثر حرب **56**.

عادت الطائرة من جديد، صباح اليوم التالي، تطالبهم بالعودة إلـــى بيوتهم، وتقول إنها سوف ترش البرص، بعد ثلاثة أيام بمبيد ســـام، لن يبقي على وجه الأرض حيّا، وأضاف الصوت المنطلق من الميكرفون: لقد أعذر من أنذر.

***

ثمـــة ما تجاوزناه، فغاليت حين وصلنا الكامب، رسمت خطا رفـــيعا لعلاقتـــنا، وقفتْ في منتصفه تماما، ثم وضعتنا أنا وعودة علـــى طرفـــي الخط، فصارت علاقتنا: أتقدمُ نحوها فترًا؛ فتقترب مـــن عـــودة مـــثله، وســـنجدها في سطور مقبلة، وقد ارتمت في حضـــنه، وتركتنـــي مترنحا على منتصف الخط. في هذه اللحظة، بالضبط، انقضَّ عليّ عساف: وين سيارتك؟ ع الشارع عند سالم. رديت. بعدها وصف لي وصفة أراحتني.

أقـــام ســـالم خيمته عند مدخل الكامب، ع الشارع الرئيسي، وبإبلـــه صـــار يخدم زواره. كيف؟. تكون سياراتهم عند بيته في مأمن، ثم يوصلهم إلى الكامب على الجمال، ويظل واحد من الإبل دومـــاً مـــربوطاً عـــند الكامب. وصفة عساف لي كانت أن أعمل رحـــلات خلـــيوية للسياح بسيارتي، يتمددون عراة في صندوقها، ونذهب إلى أحد الوديان، وعلى ضوء النجوم، نشعل النار، ثم نعد الشاي وقرص الملة. قال عساف: كل رحلة خمسة سياح أو أكثر، تأخذ عشرين جنيهاً من كل واحد، وفي الأسبوع رحلتين أو ثلاث.

ثـم غمز بعينه: دبر حالك بشوية طرينة. الماية جنيه. تربح ماية مثلها. ثم حسم الموضوع، من وجهة نظره، حين قال وهو يعطيني ظهره: لا تزعلك هالحمرا.. الحُمر كثار.

غاليت في رأي عساف حمراء، ولا أعرف كيف تنظر غاليت إلـى عساف؟ الفكرة التي تنبني عليها العلاقة بين البدو والسياح فكـرة بدائـية؛ فالأجنبـيات من وجهة نظر البدو لحم أحمر. هم يجيـئون للغوص والبانغو والرحلات البدوية، ويتعاملون مع البدو ككائـنات ما قبل التاريخ، وقد يغري الأجنبية ممارسة الجنس مع بدائـي، لا تعرف أنه مارس العادة السرية ونيك الحمير منذ صار له أربعة عشر عاما. لذلك لم يكن يؤلمني ابتعاد غاليت عني، وإن كنـت قـد شعرت ببعض الغيرة من عودة، فالعرض الذي قدمه عساف داوى تلك الغيرة وإن لم يمحها تماما.

II

صـــمت قاهـــر ذلك الذي طوى عودة، فتضاءل كحبة رمل، علـــى الجـــبل الذي يستكين فوقه. هكذا أحس بنفسه، حين فاجأته ذاكـــرته، بفكـــرة أخذت تتكتك في رأسه ككرة البينغ بونغ. راعه الفـــراغ المحـــيط به، بدأ يشعر بالتلاشي، أمام عتو الكون؛ فتلبسه إحســـاس عميق، بأن هذا الإله، الذي يسيطر على كل هذه القوى لابد أن يكون هائلا، ويرى المشهد مثل باشق. أما هو الذي مكانه علـــى الأرض، فإنـــه يتحرك من قمة إلى قمة، مثل طائر قلق لا يرى غير التفاصيل. ألهذا السبب يكون عجزه وخوفه مطبقا، أمام شركائه في الحياة؟!

انتقلـــت التكـــتكة إلى مقدمة رأسه هذه المرة، أخذ يقلبها على جوانـــبها.. "البدوي مثل حبة رمل، لا تختلط مع غيرها البتة، وإن مـــرت علـــيها ملايين السنين" أعجبته الفكرة، قراءة من الخارج، لكـــنها جـــيدة على كل حال. كلاشيه. قال لنفسه، ثم انطلق يطرح الأسئلة ويجيب عليها. هل أتحاشى الناس، لأنني مثل حبة رمل لا يمكـــنها الاختلاط مع غيرها؟ أم لأنهم مثل فيروسات دائمة البحث عن نقطة ضعف في جهاز مناعتي؟

الله.. يقـــيم معـــه علاقات من نوعٍ ما، صحيح أنها علاقات مرتـــبكة، وزادهـــا هذا المكان ارتباكا، ولكن هذا الارتباك سبب رئيســـي فـــي قدرته على حفظها. واثق أن الله سيتخذ إزاء نقاط

ضـــعفه، موقفـــا مطابقا لموقفه يوم دخلت أم صديق لتسلم عليه، صمم أن تجلس. حين قامت، كان ثوبها داخلا بين فلقتي مؤخرتها. ماذا فعل؟.. أخذ يحادث صاحبه حتى يلهيه عن المشهد.

قد يذهب لأداء الفرائض في اليوم خمس مرات، وقد لا يفعل. فإمـــام المســـجد الذي أصدر فتوى بكفره، لا فرق بينه وبين شيخ القبيلة الذي يشيح بوجهه إذا لاقاه، لا لشيء إلا لابتعاده في الفترة الأخـــيرة عـــن الديوان؛ فالمصالح التي لشيخ القبيلة من حضوره للديـــوان، بشـــرط أن يكون محجما وتابعا، هي نفسها التي لإمام المسجد من حضوره للصلاة وراءه.

رغم كونه لا يقيم علاقات منتظمة مع الله، فقد كان في أعماق ذاتـــه، يشعر بأن الله لا يمكن أن يكون عتيا معه، وأنه أقرب إلى الله من شيخ المسجد، وهو ينتمي للقبيلة، ويحبها أكثر من شيخها، الذي لا يفعل شيئا، سوى الانحناء على باب قسم الشرطة كل يوم.

تذكـــر تلك الحكاية، التي كانوا يرددونها عن واحد من مشايخ القبـــيلة، جاءه أبناء أخيه يشتكون شخصا ألسن منهم، وكلما قابلوه عـــند قـــاض، استطاع أن ينزع الحكم من فم القاضي، لصالح من كـــبَره، لذلك أرادوا قتله، وعليهم قبل أن يقتلوه، أن يأخذوا موافقة الشـــيخ. صمتَ الشيخ، وحين طال صمته، ألحوا مبررين سهولة قـــتل الـــرجل بكونه مخصيا، وفوق ذلك هو تقريبا بدون أقرباء. فزع الشيخ، وقال لهم مقولة ظلت القبيلة ترددها مثل تعويذه: كنت أتمـــنى لـــو أن في القبيلة مائة رجل مثله، أقابل بهم القبائل، وأنتم تريدون قتله، قوموا من هنا.

سيرد على الحكاية، التي لا مناص صحيحة، بأن ذلك كان في الزمن القديم، ثم إن الناس يرددونها بشاعرية، مثلما يرددون المآثر التي تحكى عن بطل أسطوري، عاش منذ آلاف السنين، تظل الحكاية تتردد من فم إلى أذن، وكل فم يضفي عليها، حتى يصل صاحبها، بعد كل هذه السنين، متفردا وخرافيا.

كانت الأفكار تتناوب رأسه، تناوب الدلاء في فوهة بئر، تناول الحقيبة، فك عقدة حبلها وأخرج المنظار، وضعه على عينيه، نظر عند رجليّ الشاهق، رأى غاليت تغطي جسدها ببطانية، وتغط في النوم قدام الخص، بينما صفائح البيرة الفارغة، وبقايا لفافات الطرينة، تملأ المكان.

هل أشاح عودة عن غاليت؟. اختارت هذا الشاهق، لترسم اللوحة فوقه، اختارت الزمان أيضا قالت: سأقوم برسم اللوحة فوق تلك القمة، وأشارت بيدها نحو الجبل، ثم أردفت: الفجر نصعد، نرقب الشمس تبزغ، من بين كتفي الجبل المقابل. أعدتْ اللوحة، ثم وضعت الألوان والفرش في حقيبتها، وقام عودة بإعداد حقيبته، وضع فيها المنظار وصفيحتي كوكاكولا.

ولكنها، على إثر السكر ودندنة عود عساف بالأمس، انتشت ونامت، صعد وحده يقول لنفسه: دعها تنام (يا ولد) هذا الصباح، الأيام أمامنا طويلة (عد موجات البحر يا جحا.. الجايات أكثر من الرايحات..)

خلصه المثل من أكثر اللحظات التي ترعبه، لحظة إشاحة الوجه. فمنذ تلك المرة التي أشاح فيها الشيخ بوجهه عنه، صار

يفتش عن هذه اللحظة، وتتوالى الأسئلة في رأسه، توالي قطيع من الماعز تلج مضيقا جبليا، أهو الذي أشاح بوجهه؟ أم الآخر؟ وحينما رسب في اختبار القبول بالكلية الحربية، لم يقل لماذا رسبت؟ بل قال لماذا أشاح الضابط الممتحن بوجهه عني؟!!

شيخ القبيلة رآه في حلته بهيا وأفضل من ابنه، فتعمد إلا يقابله بوجهه، لمحه مرارا، يتفحصه من فوق أرنبة أنفه، فكر في معنى هذه النظرات، وظن الرجل يتخيله زوجا لابنته، وسرعان ما تذكر قوله: عودة ولد سلمان المجنون. تذكر أن أبا الشيخ فعلها مع جده، الذي راجع نفسه، وخلع الثوب الذي ضايق شيخ القبيلة، وعاد إلى ارتداء ثوبه القديم الرخيص. إذا كان الشيخ قد أشاح بوجهه عنه، لنفس السبب، الذي جعل أباه يشيح عن جده، فلماذا أشاح الضابط بوجهه؟

***

شعر بالغثيان؛ فأمسك وجهه براحتيه، أغمض عينيه، وتشبث بنفسه على قمة الجبل، كي لا يسقط عند قاعه، فتح الحقيبة، لم يجد الماء، أخرج صفيحة كوكاكولا، قشع الغطاء المعدني الملتصق بفوهتها، وصب في يديه وشطف وجهه، أحس، رغم اللزوجة التي تركتها الكوكاكولا على وجهه، ببعض الإفاقة، تناول الحقيبة، كان الحبل القابض على فوهتها مفكوكا، أخرج الكاسيت، وضعه إلى جانبه، نظر إلى البحر الممتد عند قدمي الجبل، كان لون البحر وهدوؤه فاتكا، وهو يمتد ليفصل بين الشاهقين، اللذين يتصاعدان في دولتين، كانت غاليت تردد: بن سلمان . بن سلمان،

أريـــد أن أرسم اللوحة، حين تخرج الشمس من رأس الجبل، الذي فـــي الأردن وأنـــا جالسة على قمة هذا الجبل الذي في سيناء، بن سلمان.. هكذا صارت غاليت تناديه، منذ اللحظة الأولى، التي قدم نفسه لها: اسمي عودة.. عودة بن سلمان. ظلت تناديه "بن سلمان" متحاشـــية اســـمه الأول "عودة" . أعجبه الاسم، وصار يتمنى، لو يـــناديه الـــناس به؛ فالموسيقى التي يُنطق بها، تذكره بالموسيقى، التي ينطق بها اسم بن فرانكلين.

***

تناولـــت هاتفـــي الجوال، لأهاتف سمير راغب، وأسأله عن معـــنى كلمـــة "بن" في اللغة الإنكليزية. خانتني الشبكة؛ فقد كانت الشـــبكة المصـــرية واقعة، أخذت جوّال غاليت، الذي اشترته من ســـائحة إســـرائيلية، أجبرها الفلس على بيعه، فجأة وجدت نفسي أنكمـــش، فقد تذكرت أن سمير راغب، قد تزعجه مكالمة آتية من إســـرائيل. تخلصت من انكماشي بسرعة، لحظة تذكرت أنِ سمير راغـــب، ليس بدويًا كي ترعبه هذه المكالمة، فمرة هاتفت بدويًا، من هاتف صديق تركي، شعرت وأنا أهاتفه أنه يريد الفتك بي، لم أتضـــايق، تركيا في المخيلة الرسمية مرتبطة بالمخدرات، وهو لا يـــريد إشـــكاليات، ســـتحدث له، لاستقبال مكالمة من تركيا، على هاتف باسمه.

لكـــن سمير راغب لن تزعجه مهاتفة آتية من إسرائيل، وهو الـــذي أزعـــج المسلمين والنصارى يوم قرر الزواج من رند، هو مصـــري قبطي، ورند مسلمة فلسطينية. طلبت الرقم، رفعت رند

السماعة وبصوتها المبحوح، من سجائر الكليوباترا، التي تدخنها بشراهة. قالت: سمير نايم. قلت: صحيه. ثم أضفت مرة ثانية: صحيه.. سمعتها توقظه، عرفت أنه سيكون متضايقا، لم أهتم بضيقه. عرفته أثناء مؤتمر خاص بالمحميات الطبيعية، كان يترجم كلامنا للإنكليزية، ويترجم الإنكليزية للعربية، بعد انتهاء المؤتمر، اقترب مني قائلا: إنت من سينا. قلت: أيس. ابتسم. اعتقد أني أريد أن أقول **yes**، ولكني شقلبتها إلى أيس. وضحت له بسرعة: أيس كلمة عربية تعني نعم. مفردة ليس هي في الأصل لا أيس بمعنى لا نعم، ولكنها أدغمت فأصبحت ليس، وثمة قبيلة في سينا تقول ايس، وتستخدمها بمعنى نعم في حالات الاستفسار. قبل أن نفترق، أعطاني كارت، فيه رقم تليفونه. ابتسمت وأنا أتناول منه الكارت، كنت أعي أنه يتعامل معي، مثل واحد من الكائنات التي يدور حولها المؤتمر، لم يضايقني ذلك.

جاءني صوته عبر الهاتف، كان يتكلم تحت تأثير النوم، لم أعتذر. سألته عن معنى كلمة بن في الإنكليزية، قال: دا اسم.. دا اختصار اسم. فسألته: ايش هو الاسم؟ رد: بنيامين. قلت شكرا وقفلت السماعة.

***

مَن؟ فعل ماذا؟ عن مَن؟ هذه واحدة من أدوات محترفي الذكاء الاصطناعي، كتبتها ليسهل عليك بلع ما أريد، لكن في البداية سأتركك لتلعب معها، استخدمْ تكنيكا بسيطا في اللعب، ليكن التقديم والتأخير، الإحلال والإبدال، ستحصل على مئات الجمل.

هـيا، الآن ابدأ، أما أنا فسوف أستخدمها كميزان، أعيد به توزين كلمات في رأسي، وسأتبع تكنيكاً بسيطا في الوزن، لنقل: مَن فعل مـاذا عن عودة؟ لنضيق أكثر: من فعل وجهه عن عودة؟ أكثر.. أكـثر: مـن أشاح وجهه عن عودة؟ أعلى، أعلى بلغة الصولات، وهـم يـنادون على عساكرهم، الذين يرددون الشعارات: الضابط أشاح وجهه عن عودة.

إذا وضـعنا مصـطلح ضـابط في محرك بحث على النت، سنحصـل على آلاف الكلمات، مثلا: نكبة، نكسة، صدر الحيطان، العوجة، الجولان، معسكر، رتب، أكتاف، جنرال، مارشال، جنود، الممـرات، متلا، الجدي، المليز، حرب، ثغرة، دفرسوار، دبابات، طائـرات، يرو سليم، يرو سالم، يرو سلمان، وسلمان رب القوافل عـند البدو القدماء، الأيام الستة، ميدان، معركة، هزيمة، نصر... الخ.

***

انسـحب عـودة، تاركا الضابط جالسا وراء مكتبه. اشترى جـريدة، وجلـس في المحطة، ينتظر الباص الذي يقله إلى رفح. قلّب الصفحات يطالع المانيشتات: تناقص منسوب المياه في بحيرة السـد العالـي. مصرع خمسة وإصابة(..) في انفجار خط أنابيب غـاز طبيعـي في حي المعصرة. سيارة نقل مندفعة فوق كوبري السـيدة عائشـة تصطدم بعدة سيارات وتصرع خمسة أشخاص. النائـب العـام ينفي وجود كشوف البركة. دار نشر أمريكية تتهم عمـيد كلية تجارة عين شمس بنقل أجزاء كاملة من أحد كتبها إلى

كـتابه المنشـور بالعربـية. تفجيرات نووية إسرائيلية في القارة القطبـية الجنوبـية. صورة تحتها مكتوب: المهندس عثمان أحمد عثمان والمحاسب أشرف السعد يفتتحان أحد المشروعات الجديدة. وأخـرى: سـمو الأمير الدكتور الشيخ الفاسي في زيارة أكاديمية الشـرطة وفـي اسـتقباله السـيد الدكتور اللواء (..) نائب وزير الداخلية (...)

***

بينما الأصوات المنطلقة، من الفيلم المعروض على الشاشتين، المعلقتيـن فـوق الكراسـي لـم تسكت، تناول عودة حقيبة الجلد الصـغيرة مـن الـرف، ثم وضعها على كتفه، وأتجه نحو الباب الامامي للباص.

– سادوت.. قال للسائق وهو يدس في جيبه بعض الفكّة.

أي خدمـة. قـال السائق بينما الباب الأمامي ينفتح، ليأخذ شـكل بوابـة صـغيرة، تفصـل بين برودة الداخل التي يطلقها التكيـيف، وحرارة الخارج التي تدقها السماء كمسامير في الهواء الصحراوي. استقبل عودة سخونة الهواء، بينما الباص يبتعد مخلفا وراءه ضـجيجا بـدأ يتلاشـى، قبل أن يخنقه الخلاء الممتد على جانبـي الأسفلت. عَبر الشارع إلى الناحية الأخرى، فسمع صوتا هامسـا: ديـر بالك يا عودة البوكس قدامك. من هذا.؟ قال عودة وانحـنى ناحـية الهمس، كان حماد تحت شجرة لوز متمددًا على بطـنه، ينفـث دخان عقب سيكارة، يرسل التحذير واضعا إصبعه على شفتيه، مرحب حماد. هلا عودة. دير بالك البوكس بتلف. لا

تقلــق علــيّ معي هويتي. ودهم يرموك في البوكس من غير ما يسعلوك عنهي .

ايــش صــار؟ أرتــجّ السؤال داخله حين اقترب من الدرب الموازيــة، التــي كان يسلكها إلى المدرسة. انحنى وتناول زلطة، رمــى بها فروع شجرة الجميز، التي تنتصب على حافة الدرب، تــناول حبة حمراء، من الحبات التي سقطت، مسح التراب عنها، ووضعها في فمه.

كانــت جدتــه تعتلــي جذوعها وتسقط الثمار؛ فيجمعها في حجــره، يأكل الناضجة، أما الرديء فتأكله الأغنام، انفرج ساقاها؛ فــرأى مــا ظــنه جــرحا بين فخذيها؛ فصاح متسائلا: من اللي جرحكي هالجرح الواعر يا جدة؟ هذا جرح جدك.. تعيش وتجرح جرحه.

يســتغرب عــودة ارتقــاء جدته للجميزة، لكن ما يثيره أكثر ضــحكها دونما سبب، وسؤالها عن أبيه وعمه، وقولها إن الطيارة أخــبرتها أنهمــا جاءا مساء أمس، وحديثها أحيانا عن حضورهما بفــرح ظاهر أو بحزن شديد، ومشيها تطلق الزغاريد في الخلاء، وقولها أن البراد أخبرها أن سلمان سيعود بعد أسبوع.

أما الأم التي تحكي لعودة حكاية جدته فتضيف: لكن جدك لم يــتركها.. وداها للفقير، ولمّا عجز عن مداواتها، ذهب الى كاشفي الورق في خان يونس، أوصوه أن يحضر ديكا أحمر، ثم يَعدّ سبع موجــات ويذبحــه لــرجال البحر. تساءل عودة، ولكن لماذا أخذ رجــال الــبحر عقل جدتي؟ وإذا كان رجال البحر أخذوه؛ فلماذا

يعايرنـــي الأولاد بـــيا ابن المجنونة؟. لم تكن المرأة مجنونة حين تزوجها الجد، الذي كان شابا حين حلّ ضيفا على قريب له، نادى الـــرجل على ابنته لتأتي بالإبريق، كانت طفلة في حوالي الثامنة، ويبدو أن نظرته لها جعلت أباها يفهم إعجابه بها؛ فقال مازحا: إن صبرت جوزتك ياها. كانت جميلة وهو وسيم يدهن شعره بالسمن.

وهـــنا مـــن حقي أن أظن أنه أعجب أباها، وأن مزحة الأب كانـــت خلطا للجد بالهزل. تعدى الثلاثين من عمره وهو ما يزال أعـــزبا، تذكـــر تلك المزحة، فوضع نعاله في رجليه، وتوجه من فـــوره إلـــى بيت قريبه. تزوجها فأنجبت سلمان وقطيفي. سلمان مـــررنا عليه، ولكن ما حكاية قطيفي؟ ولماذا برزت هذه الحكاية حين قفز في وجهنا جنون الجدة؟ كنت صغيرا أغسل الفناجين في الديوان، حين كان الكبار يقصونها وهم متحلقين حول النار.

كان قطيفي في الرابعة عشر من عمره، ولم يكن قد ذهب إلى العقبة أكثر من ثلاث مرات، عزّ عليه أن يترك حلمه، وها هو قد عرف الدرب، وصار قادرا على درء أخطارها، فإذ بالحدود تعبث في الرمل، الذي درب نفسه على الالتفاف حول كثبانه. رجاه أبوه طويـــلا أن يـــترك التجارة، فلم ينفع معه الرجاء، ذكّره بأن الدول قذفـــت بعســـاكرها علـــى المشـــارف الشرقية لمضارب القبيلة، ووضـــعتها فـــي قلـــب البادية، مثلما تضع الأفعى سمها في جسد الآدمي. الحدود لا سبيل لاجتيازها.. إن كان هناك سبيل، فالمقابل لا يعـــادل الخطـــر الذي يُقدم عليه. كان الأب يتكلم، بينما قطيفي يشـــيح بوجهه صوب الخلاء، يداعب حصوات بين يديه، يسربها

بين أصابعه، ثم يعود يلتقطها مرة ثانية: اي يابياه بس لا تاخذ في بالك انت. في جوف الليل سمع الأب همهمة الجمل، وأدرك أن لا سبيل لمنع القافلة من المكتوب، فدعا لها بالعود سالمة.

فك قطيفي عقال البعير، وفرّق الكليمات في الخرج، بعد أن رصّ الخرز والمسابح تحتهما. خطى الجمل متمهلا، عن البيت مسافة ليست بعيدة، فاعتلى قطيفي ظهره، وحثه على السير جنوبا تجاه العقبة، جاوز رأس النقب؛ فاتخذ له مكانا على الناحية الغربية من الحدود، أناخ الجمل وجلس يستريح ويريح بعيره. تناول حبات من التمر دسها في فم الجمل، ثم استلقى على ظهره يتملى النجوم، وبعد أن عاين موضع بزوغ نجمة الثريا، أغمض عينيه منتظرا طلوعها. غفا فأيقظته همهمة البعير، نظر إلى حيث حدد موقع بزوغ النجمة، كانت الثريا تخرج على استحياء، تناول القربة المربوطة فوق السرج، ملأ كفه بالماء البارد وشرب ثم مسح وجهه، بهدوء اعتلى ظهر البعير، لكزه، فانتصب الجمل واقفا، لامس رقبته وهمس له: حيت. توجه إلى الحدود وحين اقترب منها رفع الجمل رأسه عاليا، وتلكأ في مشيته، أصاخ قطيفي السمع، كان صوت الباور. يختلف عن صوت سيارات المصريين، القلق الذي تثيره سيارات اليهود أكثر، لعناء اليهود قادرين على اصطياد حتى البرغشة، المصريون لا خوف منهم، من الممكن رشوتهم، تمتم وهو يتدلى نازلا على رجل الجمل الأمامية، لف رسن الجمل على ساعده، وثنى ركبتيه فوق الرمل وأصاخ السمع، كان الصوت يبتعد، شهق نفساً، وتعرقب الجمل،

ولمّـا اسـتوى فوقه، خفف من قبضته على الرسن، فانساب حتى اجـتاز الحـدود، فـأزّه قطيفي متمنيا في أعماقه، لو يتحول إلى حصـانٍ علـيّ ابن أبي طالب فارس المشارق والمغارب أسد الله الغالـب الذي يجري على مد الشوف، كما حكى أمامه الشيخ في الزاوية، حين كان يتردد عليها.

مـع شروق الشمس كان في سوق العقبة، باع ما معه وبحث عن عقد وعد مليحة به، لتزين جيدها يوم العيد. مليحة بنت عمه، التي أعطاه أبوها قصلتها من سنوات. اشترى العقد ودسه في قعر الخـرج، ثم رصّ فوقه باقي البضائع، انسحب إلى طرف المدينة لـيريح بعيره، عقل الجمل، ثم توسد نعاله تحت شجرة أثل، تغطى بعـباءته وأغمض عينيه. حين استيقظ، قام ولملم حطبا، أوقده، ثم مـلأ كفيه من الدقيق الموضوع بعناية في طرف الخرج، وضعه فـي إنـاء يسقي فيه الجمل، دلق عليه حفنة ماء، من قربة معلقة فـوق سـنام البعـير، عجن الدقيق ودسه في التراب تحت النار. أخـرج الرغـيف بعد أن قلّبَه على جهته الأخرى، همهم للجمل؛ فاقبل، وضع في فمه نصف الرغيف.

كركـرت دلّـة الشاي بطرف النار، فملأ يده سكرا ووضعه فـيها، قضم الرغيف موزعا عينيه بين جمله، الذي يمضغ ببطء، ودلّـة الشاي التي بدأت الفقاقيع تنساب من طرفها، على الجمرات المتقدة؛ فتحدث حشرجة، تناول حفنة من شاي، حطّه فيها. أبعدها عـن النار لتغلي بهدوء. صب في فم الجمل شفطة شاي، وصبّ لنفسه الفنجان الأول، جلس يرتشف الشاي، ويتأمل رءوس الجبال،

التـــي تحيط به باستكبار. حين قارب الليل على الانتهاء، شد على جمله وتأكد من وضع الأشياء في أماكنها، تحسس العقد، ثم اعتلى ظهـــر الجمـــل، عـــارف أنـــه سيعبر حدود الأردن مع إسرائيل، وسيصـــل صـــحراء النقـــب مع الظهر، سيتعداها إلى قرب حدود إســـرائيل مـــع سيناء، هناك يريح جمله حتى الفجر، في الضحى يكـــون بين أهله. حين أوغل في صحراء النقب، أحس بالجمل من تحـــته يـــتململ، اطرق أذنيه، سمع أزيز الطائرة. طائرة اليهود. همـــس لجمله ولفّ الرسن حول رقبته وأطلقه، التصق بشجرة أثل كســـاقها، أما البعير، فمضى حتى وجد شجيرات سدر، أخذ يقضم الطري من أغصانها. كانت الطائرة تحوّم فوق قطيفي، تقلّب عليه الصـــحراء، تقـــترب مـــن الشـــجرة تكاد تجتثها، غابت الشمس؛ فابـــتعدت الطائرة، وقبل أن يتلاشى صوتها، سمع همهمة البعير، اعتلاه ولكزه ليلحق بالحدود قبيل الفجر.

وصـــل البيـــت ضـــحى، ربط الجمل وذهب لينام، وقبل أن يغمض عينيه، جاءه صوت رفيقه لويفي: يا قطيفي ..ولد العيد ع قوز العيد يا قطيفي. قفز ملتفتا ناحية قوز العيد، الحكومة. همس. كانـــت الحكومـــة أقرب إلى الجمل البارك، الذي يحاول الوقوف ولكـــن القيد يعيقه، بينما يتطاير الزبد من فمه كأنه رغاء الصابون .. " لو لم أعقله." قال في نفسه. أخذ العسكر الجمل، ذهبوا به إلى النقطة، بعد أن تقاسموا البضاعة التي وجدوها مكومة الى جواره.

جـــاء الشيخ يعطى الأمان لقطيفي، مقسما عليه أن يُسلم نفسه للحكومـــة، وســـيعطونه الجمل والبضاعة، إن أقرّ على نفسه بألا

يعـــود. مالـــت نفـــس الأب لعرض الشيخ، وقال لأبنه: اذهب مع الشـــيخ يـــا قطيفـــي للحكومـــة.. الحكومة هي الرب الصغير ، سيعطونك بضاعتك.. أو ع الأقل جملك ولن يؤذوك.

ما لهم أمان، ما وفوا بوعدهم مره واحده.

سيوفون المرة هذي يا قطيفي. قال الشيخ.

لن يوفوا.

اذهب مع الشيخ يا قطيفي .. وفى ضمانته. رجاه الأب

ذهـــب قطيفـــي برفقة الشيخ إلى النقطة، ادخلوه إلى الخيمة، وصـــرفوا الشيخ وعدوه بأنهم سيطلقونه بمجرد إخبار القيادة ولن يـــتأخر كثيرا، ما أن توارى الشيخ حتى أتوا بقطيفي، شدوا وثاقه، ألقوه على وجهه أمام الخيمة، ويداه مربوطتان إلى ظهره، صاروا يكيلون الركلات إلى وجهه، حتى سال الدم من أنفه وفمه.

فى صباح اليوم الثانى، فكوا قيده، وغطوا عينيه وجروه إلى خـــيمة فخمـــة يجلس فيها رجل تلمع فوق أكتافه النجوم الصفراء، كـــان خمسة من الجنود يقفون أمام الخيمة ينتظرون أوامره. حين صار قطيفي أمامه، صرخ الضابط: بتعمل إيه في إسرائيل يا ابن الكلـــب؟. قوطرت للعقبة ما قوطرت لاسراييل. أنت بتبربر بتقول إيـــه. مـــا تـــتكلم عربي يا كس أمك، وتقول كنت بتعمل إيه في إســـرائيل. أنا ما لقيت ع اسراييل، آني لقيت ع العقبة، وبضاعتي شـــاهدة .. لم يكمل قطيفي العبارة، جاءته لكمة على وجهه كادت تطرحه أرضا، تماسك، جاءته الثانية؛ فسقط على وجهه.

فتشـــوا طيزه هتلاقوا الجهاز مخبيه فيها، وان ما لقيتوهوش هـــاتوا أمـــه، هتلاقوها مخبياه في كسها، اصل أنا عارفهم العرب دول ولاد شـــرموطة خونـــة، ومـــالهومش دين..اليهود بينيكوهم، اسْـــتَحلوا ازبار اليهود، عشان كده همه بيحبوهم. رفع جندي ثوب قطيفـــي فانـــتفض محاولا الوقوف، جلس ثان على رأسه، وثالث علـــى ظهـــره.. وأمســـك الرابع برجليه، رفع ثوبه. أما الخامس فأدخل شيئا غليظا في مؤخرة قطيفي التي انقبضت.

مالقيناش حاجه يافندم. أرموه في الخيمة زى الجدي، وهاتوا أمه هنا، فتشوا كسها قدام ابن الوسخة اللي مش عايز يقول مخبي الجهاز فين. التفت إلى قطيفي موجها إليه الكلام وهو يضغط على الحـــروف: هتفضل عندي هنا هووه.. أخليهم ينيكوا في دين أمك لحد متقول الجهاز اللي ادوهولك اليهود مخبيه فين يا معزة يا ابن المعزة.

جـــاءوا بأمـــه وقلّـــبوا مؤخرتها أمام عينيه، نهق مثل حمار وأخـــرج زبـــه وأخـــذ يستمني علنا، أمام العسكر، وأمام أمه التي صـــرخت وهـــى تحـــاول الفكاك، من الجنود الذين يكبلون يديها ورجلـــيها، محاولة القفز صوب ابنها، الذي رأت الزبد يتناثر من فمـــه، وحيـــن لم تستطع التخلص من قبضة العسكر، جلست على ركبتيها وصرخت.

ســـيظل قطيفـــي يحوم في البرية شبه عار، وكلما يرى بنتا ســـارحة وراء غـــنمها، يعري زبه ويستمنى أو يبول علنا. حتى وجـــدوه ميـــتا تحـــت مثانة، ورأسه مملول بين عروقها، وساقه

اليمـــنى زرقاء منتفخة، وآثار أنياب الأفعى واضحة فيها. ستطلق أمه الزغاريد، وستظل تطلقها حتى تموت.

جـــاءت الجـــدة، تطلق الزغاريد، حين رأت الراية، ترفرف وهـــي تـــردد بـــأن الطيارة لم تكذب لمّا خبرتها برجوع سلمان، حاولـــت الأم إســـكاتها؛ فنادى عودة من الداخل: زغردي يا جدة، زغردي. نادته الجدة: بالله ما جا أبوك؟. جا أو ما جا، زغردي.. بـــس زغـــردي. لو أن أبوك ما جا ما علقت أمك الراية. ما جا.. علقتها لما أطهرت أمس.

لـــم يفـــرح عودة بالثوب الذي ألبسته أمه، كان قميصا أبيض بنصـــف كـــم. لا يعـــرف من أين أتت به، وإن كان يعتقد أنه من قمصـــان خالـــه، سألها: هذا قميص، وليس ثوبا مثل الثوب الذي يلبسه الأولاد. قالت: انتظر وسأجعله ثوبا أحسن من ثيابهم، ودون أن تقطع أزراره حاكت صدارته، ثم عرضته أمامه: وش رايك؟.

طلبـــت الأم مـــن عـــودة، أن يرتقي النخلة، ويأتي بجريدة، تخلصت من السعف ولم تبق منه غير عرف صغير فى رأسها، ثم خاطـــت تحـــته القماشة البيضاء، وعلقتها فوق البيت، قبل الفرح بسبعة أيام. اكتفت بتعليق الراية ولم تقم فرحا، أثارت الراية خلافا حـــادا بين الأم والجدة، حين جاءت تطلق الزغاريد، فأسكتتها الأم متشـــائمة مـــن إعلان الفرح. من أيام الجد القديم جد العائلة، الذي أصيب بضربة رمح فى عنقه، في واحدة من أشد وأعنف حروب البدو، وظل عنقه مفتوحا حتى مات، وكان لا يأكل ولا يشرب إلا مضـــجعا، لأن الأكـــل والشـــرب يندلقان منها، كان فخورا لأنها

انفتحت، أثناء دفاعه عن حمى قبيلته. أبلى الجد بلاء حسنا في تلك الحـــرب، قبل أن يرميه أحد الفرسان، برمح في عنقه أسقطه عن فرســـه، ولا تنتهي الحكاية هكذا، إذ هناك من يقول: إنه أخذ ماله وأمه وأخته الصماء البكماء، وأخوين له الأول فى الثالثة عشر من عمـــره والثانـــي في السادسة، وبادر بالهروب يوم المعركة، حين رأى كـــثرة الفرســـان المهاجميـــن، ولمّـــا لحقوه، امتطى وأخوه جواديهما، وظلا يقاتلان حتى قتل أخوه، ووقع هو عن فرسه، أما أمه، فقد جلست فوق كيس المال، والطفل بجانبها، وحين قتل الأخ ووقـــع هو عن فرسه، اقتاد فرسان القبيلة المغيرة الطفل، ومددوه علـــى الأرض أمام أمه، وضعوا السيف على رقبته، وطلبوا منها أن تلبســـه ثـــوب امرأة مقابل تركه. وحين رفضت، قطعوا رأسه ودحرجوه نحوها، فقابلت الأم الرأس المتدحرج بالزغاريد.

ثمـــة ما تجاوزناه، حين حكينا عن الجُد المرمي، والدم يسيل من رقبته، إذ بادر أحد الفرسان بحمله، ونقله إلى خيمة ضمّد فيها جراحه. أراد الزواج، فخطب بنت منقذه، وبعد طول إعداد للفرح، نحـــرت الذبائح، وأشعلت أمه النار لطهي الطعام، امتدت النار إلى طـــرف البيـــت فاحـــترق، ومـــن لحظتها صار الجد يتشاءم من الأفـــراح، وأورث العائلـــة التشاؤم، ومن يومها لم يُقم لا هو ولا أحفاده من بعده أفراحا.

* * *

كان رجل يجوب المضارب، بخُرج على ظهره، يخرج منه مقصات وأمواس، يحلق بها روؤس الأولاد وأحيانا الرجال. جاء

لـيقص شـعر عودة، ففزع من عينه العوراء، كانت مفقوءة. كان يفـك الألغام المتخلفة من الحروب، ليبيع نحاسها، انفجر لغم فأخذ عيـنه اليمنى. أما الأولاد فيقولون بأن عينه عين كلب، ركبها له الحكيم.

وضع الرجل المقصات والأمواس على الرمل، وقام بمسح الموسـى بطـرف ثوبه، وقطع غلفة عودة، الذي بكى من الألم، وزاد من بكائه إسكات أمه لزغاريد جدته، انتحب مطالبا بأن يقام له فرح، أو تزغرد جدته. رضخت الأم لبكائه المتواصل، وجمعت جاراتهـا. الأم تغنـي والبـنات بثيابهن المطرزة بالأحمر يدبكن، السـعادة التـي ملأتـه، من طقطقة الخلاخيل والأساور والأقراط والقلائد، جعلته كلما مللن طالبهن بالمزيد.

***

فـي سنة **78** كان عودة في الصف الخامس، يشاركه الدرج عسـاف، الـذي كان الأستاذ سعيد العشي، يعول عليه في الفوز، بـبطولة دوري المـدارس لكرة الطائرة. من شان الله يا عساف، العـب السيرف وأنت واقف، ولك دخيل دين ربك، العب متل ما كـل الناس بتلعب.. وأنت واقف، وأنت واقف. ثم يجلس، الأستاذ، علـى ركبتـيه رافعا يديه: وأنت واقف يا عساف. يجلس عساف علـى مشـطي قدميه، يلعب السيرف بظهر يده، فلا يقدر أحد أن يصـد الكـرة، التي تصفر متجهة إلى البقعة، التي أرسلها إليها. وحين تسوء نتيجة فريقه، يبدأ في طرد زملائه، حتى يظل وحده، وحين يحس بأن النتيجة ليست فى صالحه، يُطلق الشتائم.

كانـــا في طريقهما إلى المضارب، عائدين من المدرسة بعد انتهاء الدوام، حين رمى عساف بالكتب والدفاتر فى سياج الصبر، ثـــم أقسم بأنه لن يعود الى المدرسة مرة ثانية، وأضاف: أنا ودي ألقـــي ع إســـرابيل يا عودة . وايش ودك تقول لـــ هلك؟. ما أني قـــايل لـــيهم شـــيء. علمهم أنت. بس مش قبل المغرب، فهمت. المغـــرب تكـــون السيارة طلعت من الموقف. وين ودك تلقي في اســـرابيل. ما أني داري. بس دير بالك أمي ودها تنجن، وتلحقني ع الموقف، تسوي لي فضيحة.

خـــلاص. بطل المدرسة يا استاذ. لقى ع إسرابيل وده يشتغل هنه. رد عودة على الأستاذ سعيد حين سأله عن عساف.

ذهـــب عســـاف إلـــى الطيرة، سكن فى بيت تحت البناء، مع عشـــرات مـــن العمال البدو، كان أهل الطيرة يسمونهم الغزازوة، وكلمـــا رأى الأولاد مـــنهم واحـــدا، رموه بالطوب وهم يرددون: غزاوي بيضو لاوي. اشتغل في مزرعة لإنتاج البيض، لها زبون دائـــم، يهـــودي من أصل يمني، صارا صديقين، عرض عليه أن يعمـــل عـــنده، وافـــق عساف، خاصة وأن الأجر الذي سيتقاضاه كبـــير، اتفقا أن يلتقيا بداية الأسبوع، على مفارق بيتاح تيكفا. كان مكـــان العمل الجديد هيكل باص على شكل كافتيريا، أمامه مظلة واســـعة وبجانبه ميكروباص مُعد للنوم. واجهة الباص مقصوصة، ومكانهـــا بـــراد يظهر كطاولة زجاجية. ولأن الكافتيريا مقامة فى مـــنطقة عسكرية، وأمام معسكر للمدرعات؛ فقد كان ممنوعا على العـــرب الغـــير مجنســـين دخولها. قال اليمني إن سألك أحد عن

بـــلادك، قـــل من راهط. ثم أوضح: قرية بدوية تابعة منطقة بئر السبع. أنت تشبه أهلها.

ســـارت الأمـــور بشـــكل جـــيد، حتى اللحظة التي سها فيها عســـاف، ووضـــع هويـــته تحت الزجاج، ونسيها. جاء اثنان من المشـــمار كفـــول، أوقفا الجيب أمام الكافتيريا، هبطا، واتجها إلى الـــثلاجة، تـــناولا صـــفيحتي كوكـــاكولا، وبدءا يشربان بهدوء، ويتفحصـــان المكان، فلمح واحد منهما الهوية، نظر إليها مدققا من وراء الـــزجاج، صـــاح: م ايفو اتاه؟ م بير شيبع. أجاب عساف، الـــذي لـــم يكـــن يـــدري أن الشرطي رأى الهوية. قفز الشرطي خطوتيـــن إلـــى الأمـــام، ونقر إصبعه السبابة على الزجاج، فوق الهويـــة بالضبط ونادى: ييلد تين لي زى. التف عساف إلى الهوية وناولهـــا له، نظـــر إلـــيها الشرطي، ضغط بكفيه على صدغيّ عســـاف، الواقـــف متسمرا خلف طاولة الزجاج، وسحبه من فوق الطاولة إلى الخارج، حمله تحت إبطه، وأقعده على صدام الجيب. فـــي هـــذه اللحظـــة، بالضبط، كان اليهودي اليمنى آتيا من داخل المعســـكر، يحمل كيسا يلملم فيه الزجاجات الفارغة، من صناديق القمامـــة المنتشرة على جانبي الطرقات، رأى المشهد، زعق على الشـــرطي: لا تقـــربه. يقـــول عساف في حكايته التي لا يمل من تـــردادها، فـــي ليالـــي الكامب الجافة: وصل اليمني، فطلب منه الشـــرطي هويـــته، ناولها له، طلب منا أن نركب الجيب، رفض اليمنـــي مفضـــلا ســـيارته الفولكس فاغن. وافق الشرطي فأردف اليمـــنى: وعســـاف يصحبني في سيارتي. في الطريق أيقنت أني

هالك، أتواجد في منطقة عسكرية، أتعامل وبشكل يومي مع ضباط وجـنود، يقبلون بعضهم ويتنياكون ويحكون أمامي، وهم جالسين فـي الكافتـيريا يأكلون ويشربون البيرة، أسرارهم. قطع تفكيري اليمنـي طالبا مني، أن أنكر كوني أنام في الكافتيريا، و أن أقول إني أسافر كل مساء، وأعود صباح اليوم الثاني.

جلسـتُ فـي صـالة مكيفة، أمام مكتب دخل فيه مستخدمي اليمني، بعد لحظات خرج اليمني، وهو ينظر نحوي باسما، أدخلت ابتسـامته بعـض الـراحة عليّ. أدخلوني الى ضابط استخبارات متواضـع الرتبة، سألني عن سبب وجودي عند المعسكر، وإذا ما كنت أعرف حجم الخطأ الذي ارتكبته، بدخولي هذه المنطقة، وعن الطريقة التي أسافر بها كل يوم، أجبته الإجابات التي اتفقت عليها مـع اليمنـي. صرفني الضابط، بعد أن حذرني من التواجد أمام المعسكر مرة ثانية.

* * *

وصل عودة البيت فلم يجد أحدا، ألقى حقيبته من على ظهره، بحـث عـن الإبريق ليبل ريقه، وجده مقلوبا، لابد أن الكلبة فعلت ذلك. تمتم. كانت أمه في المرعى ولا تعود إلا مع مغيب الشمس، تربط أغنامها، تشعل النار وتعد طعام العشاء.

حيـن عادت، أم عودة، تسوق غنيماتها، كان، عودة، لا يزال مكفيا على وجهه أمام الخيمة. لم توقظه الجلبة التي أثارتها الغنم، ولا نعيق أمه عليها. أما الأم التي أوصت ابنها طويلا، بأن يتجنب النوم بين أذاني العصر والمغرب، وأكدت عليه أن لا يقرب النوم

إلا بيـــن أذاني الظهر والعصر، أو بين العشاء والفجر، فقد نادت علـــيه. هـــب واقفـــا. أحست بأن الأمور ليست على خير، لكنها أمســـكت زمـــام الأمور، وأخبرته بأنها تركت عساف أمام خيمته يعمل شاي.

لـــم تكـــن تـــدري لماذا غاب ابنها، كانت تعرف بأنه يذهب للمدرســـة، قال لها مرة بأنه يريد إن يكون ضابطاً، فلم تلق بالا، لأنهـــا لا تعـــي الفـــارق بين الضابط والشاويش، رغم أنها رأت جيوشا كثيرة. كانت طفلة تسمع الناس يتحدثون، عن جيش البادية، الذي استطاع أن يدحر البدو نهائيا عن سرقة الكامب، لمّا جاء به الإنكلـــيز لحراســـته، وسمعت مثل كل الناس بحكاية مناع، حين ذهـــب لمعسكرهم، فسألوه أبدوي هو أم فلاح؟ ولأن الرجل بدوي بالفعل، أخبرهم- مفاخرا- ببداوته.

طلـــبوا منه أن يعاودهم في اليوم التالي، لأنهم يحتاجونه في أمـــر مهـــم. كـــان عسكر جيش البادية، يعدون طعامهم بأيديهم، يذبحـــون كـــل يـــوم خروفا. وحينما ذهب فوجيء بهم، وقد لفوا الكـــرش في خرقة، وطلبوا منه إن يأخذها. شكرهم.. ولم يعرف أنهـــم يختـــبرون بداوته، إلا حينما سألوه ولماذا لا تأخذ الكرش.. تغسلها وتطعمها عيالك؟. وحين أخبرهم بأنه لا يأكل الكرش، قهقه قائدهم عاليا، وأمرهم بأن يعطوه قطعة، من أحسن ما في الذبيحة، فقد أثبت الرجل كونه بدويا أصيلا بالفعل.

ومـــثلما رأت أم عـــودة جيش البادية، رأت جيش ابن سعود، الذي دفع به الملك عبد العزيز ليشارك في حرب **48**، وفي سنة **1967**رأت الجيش المصري وعساكره متناثرين بين المضارب.

.....

من بعيد رأى عودة النار المشتعلة قدام الخيمة، وحين اقترب مـــنها لاقاه الكلب. زجره.. فقرب الكلب بطنه من الأرض وصار يلاعـــب ذيلـــه. قفز عساف مرحبا، وأمسك بحجر رمى به الكلب ونهره فابتعد.

مـــد عساف الكليم على الرمل، فسبقه عودة مفترشا التراب، ولملـــم الكلـــيم، ثـــم وضعه تحت كوعه، متخذا منه مسندا. حرك عســـاف الجمر، المتقد بماش في يده، قرب البراد ف طرف النار، ثـــم شـــطف فنجانين، وصب في واحد منهما شايا، وناوله عودة. ارتشف عوده الرشفة الأولى، ثم حفر في الأرض حفرة، دلق فيها الشـــاي المتبقي في الفنجان، ووضع الكليم تحت رأسه، وغط في نوم عميق.

***

لو كان عودة استشارني، قبل أن يقدم على هذه التجربة، التي لـــو لم تفشل في أولها، لفشلت في آخرها، لقلت له: ترى لو كنت ماشـــيا على قدميك، بجوار بدوي راكب على جمله، ووقعت من الـــرجل عصاه؛ فهل سيقول لك أعطني ياها؟. أرى عودة بخيالي، يمســـط شـــفته الســـفلى ساخرا من السؤال، ومرد سخريته، أنه ع الجســـر الفاصل بين البداوة وغيرها. سأعفيه من الإجابة. سيفعل

البدوي بالترتيب: ينيخ جمله، يتدلى من فوقه، يمسك عصاه، يضعها تحت إبطه، ثم يعتلي جمله، يلكزه ليقوم واقفا، ثم يواصل طريقه.

سيسألني عودة: وعلى أيش كل هاللفة، ليش ما قال ناولني العصا يا أبن أخ وخلاص. الذي فهمه عودة هو ما سيفهمه قريبنا الذي يعيش في المدينة، لو حكيت له نفس الحكاية؛ إذ لجيران قريبنا مشكلة معه: أقرباؤه، حين يأتوه زائرين، يظلون يطوفون في الشارع وحول العمارة، دون أن يسألوا أحدا عن شقته، والأغرب هو ضيقهم إن تطوع واحد من الجيران (وكثيرا ما يتطوعون) وسأل الواحد منهم: عاوز مين يا أخ؟؟ . لا.. شكرا. يقول الزائر ثم يصمت مواصلا بحثه عن الشقة.

سيتبرم عودة: قلت لك وعلى أيش كل هاللفة؟. سأرد: لا تكن عجلا؛ فثمة فكرة بسيطة، جعلت فصيلا من الناس يصيرون بدو. بعض البدو يؤدونها بعقل، بينما الغالبية تؤديها بفطرية. هذه الفكرة باختصار تقول: أن ثمة علاقة عكسية بين احتياجك للآخرين وحريتك. راكب الجمل أدركها بعقل، وأداها بشكل يتناسب والمفازة التي تدب أرجل جمله فوقها. زوار قريبنا، يؤدونها بشكل سيكون مقرفا له، وهو يلهث وراء السلوك المديني.

***

حين يُقتل إبراهيم الهمص، سيظن عساف أن لا شيء قد حدث، لذا فأنه سوف ينبيء عودة بخبر قتله، وكأنه يتحدث عن حادثة قتل، عند قبائل الشيروكي. وحين يمتقع وجه عودة، فسوف

يفاجـــأ بهـــذا الامتقاع. فلا يوجد ود بين عودة وإبراهيم الهمص، ولعـــل ذاكـــرة عودة لا تحفظ من إبراهيم، غير وقوفه في طابور الصـــباح، كتفه لصق كتفه، ثم يلف بوزه ناحيته، وحين يكون فمه علـــى حافـــة أذن عـــودة يقول: بدوي جاعد.. أو حين يقابله في الطـــريق؛ فيقفل أنفه بإصبعيه ويشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى، ليقول ساخرا: يا ريحة الكاز.. أمك بتحطلك كاز ع راسك ع شان يموت الكمل اللي ف شعرك.

أطلـــق الشـــرطي الفلسطيني، الرصاصات ع رأس مواطنه، فـــأرداه قتيلاً. هذه هي الصورة كاملة. وهي لا تستحق، من وجهة نظـــر عســـاف، غـــير أن تنتهي بالضبط عند كلمة قتيلا، ثم ضع بعدها نقطة على السطر، وانتقل لغيرها.

أمـــا عـــودة، الـــذي زامـــل أولاد اللاجئين الفلسطينيين في المدرســـة، فالصورة ستختلف اختلافات طفيفة، وهذه الاختلافات هـــي التـــي ستدفع به، لأن يضع نعاله في رجليه، بعد أن بل يديه ومســـح بهما وجهه. ويتوجه من فوره إلى الأسلاك الشائكة، التي تقسم رفح رفحين.

غـــادر عودة البيت، تاركا عساف وحيدا بجوار الراديو، الذي كـــان يـــنطلق منه صوت المذيع الرخيم، يقرأ طالع مستمعيه من خـــلال أبـــراجهم. عبر الشارع الوحيد الذي يمخر مدينة رفح من أولهـــا حـــتى آخرها، كان الشارع، والذي يؤدي إلى بوابة صلاح الديـــن، خاليا. ثمة جلبة صباحية، سببها الباعة الذين بدأوا في فتح دكاكيـــنهم، وقد صاروا يعرضون بضائعهم، على فرش وطاولات

خشـــبية أمامها. كانت المدرسة، ببوابتها الحديدية الصدئة، لازالت تنتصـــب على الحافة اليسرى للشارع، في مواجهة الباعة. جاءها ذات يوم، فوجد الباب مقفلا بقفل دراجة، وكتب عليه بخط مرتبك:

" اليوم هو يوم الأرض، وعليكم أن تشاركوا إخوانكم الذين سيعلنون الإضراب، في مدن القطاع، نحذركم من دخول المدرسة، الحوش والفصول ملأى بالمتفجرات."

وصـــل الفـــرّاش باب المدرسة، أوقف دراجته، ثم توجه إلى الـــباب، وحين وضع يده في جيبه، ليخرج المفاتيح تسمر واقفا، عاد بظهره إلى الوراء، اقترب من دراجته وهو يرتجف، وركبها تاركا المكان.

تقاطـــر التلاميذ، الذين كانوا يتمنون لو تنفجر هذه المدرسة، لـــيكفوا عن الذهاب إليها. ولكن فرحة الأولاد لن تطول، إذ جاءت ســـيارات الجيش الإسرائيلي المدججة بالجنود وخبراء المفرقعات، وطلـــب الجنود من الأولاد التزام الصمت. كسر خبراء المفرقعات القفل الذي يطوق الباب، واندلقوا الى داخل الحوش حذرين، بعدها قـــاموا بفـــتح أبواب الفصول. وحين لم يجدوا شيئا، قالوا للناظر: جمع الأولاد وأدخلهم .

حيـــن خـــرج الـــناظر للأولاد كان شحنهم قد اكتمل، فجاءوا بعجـــلات الكاوتشوك، ودلقوا عليها الكاز، أشعل إبراهيم الهمص عود الثقاب، ورماه فوقها، فغطى دخانها على الغبار المنبعث من صريف عجلات الجيبات فوق الإسفلت المترب.

رغـــم أن البدو ليسوا الحلقة الأضعف في المدرسة، إلا أنهم أول مـــن يفكـــر المسئولون في اختراقهم، في مثل هذه الحالات، لمعـــرفة الناتئيـــن على القانون. كان الناظر يلح على عودة: بس قولي مين اللي كتب هالكلام الفاضي.. إلا أن عودة ظل يردد: ما اني عارفه يا استاذ. ما اني عارفه.. رغم أنه كان متأكدا أن القفل الممسمر به الباب قفل دراجة إبراهيم.

***

وصـــل عودة البوابة الحديدية (هذه بوابة الحدود وهي غير بوابـــة المدرســـة) المـــزودة بصـــفارات إلكترونية، والمحاصرة بالجنازير والأسلاك الشائكة، وقف على الجانب الغربي، ينظر إلى مدخـــل بيـــت إبراهيم، الذي يبعد حوالي ثمانين مترا، من الجانب الآخر للبوابة.

ثمـــة امـــرأة، فـــي الناحية الثانية، تنادى على ابنها، الواقف بجواره، وتمتم بإشارات غير مفهومة، أو بالأحرى، فالهواء الآتي مـــن الجـــنوب، يتصـــادم مـــع كلامها الآتي من الشمال؛ فيتحول الصوت إلى لغة ثالثة، ربما هي أقرب إلى لغة الآراميين. فهم من الإشـــارات، التي تتبادلها الأم مع ابنها، أنها تعرض عليه الزواج. ويـــبدو أن العروس، المعروضة على الابن، واسعة العينين جدا، فقـــد كانـــت الأم، تضـــم رأس الإصبع الإبهام مع رأس الإصبع الســـبابة، فـــيما يشبه الدائرة وهى تخبره بأنها: شي عينها قد هيك يا امه.

تـــراجع إلـــى الوراء وجد حجرا، مسحه وجلس عليه، وبدأ يراقـــب الحـــياة حواليه، وفي الناحية الثانية بهدوء. كانت المدينة لاتزال ساكنة. العلم الإسرائيلي، بنجمة داوود فى منتصفه وخطين أزرقيـــن يطوقانها، يرفرف عاليا فوق البرج، الذي يعانق السماء فى الضفة الثانية. جندي إسرائيلي يجلس في أعالي البرج، ممسكا بمـــنظار يضعه فوق عينيه ويراقب المدينة، ثم يضعه على طاولة أمامـــه، ويمســـك بجريدة يقلب صفحاتها، بينما الجيبات العسكرية الإســـرائيلية، تواصـــل سيرها الروتيني، على الطريق الإسفلتي، الممتد بموازاة السلك.

في هذا المكان وقف شيوخ البدو، يقسمون بأغلظ الأيمان، أن هذا هو الحد الفاصل بين مصر والشام، وبأن الجنود الأتراك نقلوا العاموديـــن، الذين زارهما الخديوي ومهر اسمه عليهما، من تحت السدرة وزاحوهما غربا.

كانـــت اللجـــنة المكونة من ضباط إنكليز، يرافقهم نعوم بيك شـــقير، قد جاءت على زورق من القاهرة، استراحوا فى العريش لمـــدة يوميـــن، بعدها عاود الإنكليز ركوب زورقهم متجهين الى رفـــح، بيـــنما اصـــطحب نعوم شقير مشايخ البدو وسار بهم برا. وحين وصل رفح وقف قبالة الساحل ينتظر الزورق.

لم ير الإنكليز، أن هذه الطريقة البدائية كافية، وحدها، لوضع خط يفصل بين دولتين. ثم أن الإنكليز لا يهمهم أن يكون الحد الى الشرق قليلا أو إلى الغرب، فالذي يهمهم وجود مسافة، تفصل بين العثمانلـــي وقناة السويس. أما أولئك البدو، فقد كان لهم هما آخر.

أن تكون الحدود على مشارف مضاربهم الشرقية، حتى تكون كل أرضهم قطعة واحدة. وأن تفصل حدود ودول، بينهم وبين أعدائهم من القبائل الأخرى.

موقف الإنكليز، الغير حاسم بما فيه الكفاية مع الأتراك، جعل البدو يتبرمون. ولكنهم أخفوا تبرهم، وصمموا على اللجنة أن تتناول العشاء في مضاربهم. في الليل وبعد أن قُدم الطعام، كان شيخ القبيلة صامتا، فأراد نعوم شقير أن يعرف سبب امتناع الشيخ، عن مشاركتهم الكلام. فقام فرج (الذي هو عبد القبيلة وشاعرها) بتوضيح سبب صمت شيخه، في قصيدة طويلة جاء فيها:

يا بيك يا اللي على قدومك نشوف الخير
الحد هاته ع القبه وكرم الطير..

القبة وكرم الطير، بالضبط، هي الحدود الشرقية لمراعي القبيلة، أعجب نعوم بيك المساء الذي دحرجه الشاعر إليه، والتفت ناحية شيخ القبيلة، يطمئنه أن الحدود، ستكون تماما كما قال فرج. فنظر الشيخ لعبده بمودة..

هذا العبد حظي بشهرة واسعة، وصار يستقبل في مضارب القبائل، استقبال زعماء الصحراء وسادتها، فقد أصبح الناس يرددون أشعاره ويتغنون بها، ويخشون هجاءه، فصار لسان القبيلة والمتحدث باسمها، مما أهله لان يكون رجل المهام الصعبة. مثلا: حين جاء حمدان الملاحي (نسبة إلى قبيلة الملالحة وهي أحدى القبائل المستضعفة، ما أدري ليش!؟، في سيناء وفلسطين)

مستجيرا بالشيخ، ليسترد إبله، التي استولت عليها إحدى قبائل بئر السبع. طلب الشيخ من فرج أن يصحب المستجير، إلى مضارب من اغتصبوا الإبل، ويعرض على شيخهم الأمر.

في موعد الرحيل، عبرا البرية من رفح حتى بئر السبع، وصلا ديوان القوم مع غروب الشمس، فأجلسهما الشيخ مجلس العبيد ومستضعفي الصحراء. استكانا بصمت في مجلسيهما، وحين أراد الشيخ أن يركن إلى اللهو، نظر إلى فرج وسأله: انت يا عبد.. بتعرف تغني؟ أي والله.. بغني.. ياشيخ.. ناولني، يطول عمرك، هالربابة. رد فرج.

قبض فرج بأصابعه على الربابة. جردها من غطائها ولمس بأناملـه أوتارهـا. كانت القبضة واللمسة التي تلتها، تقولان بأن وراءهما محترفا؛ فتنبأ الجالسون بأنهم سيسمعون غناء، يتوقف له شعر رؤوسهم. قربها من النار لتسخن، ثم بدأ يسن عليها ألحانا مطروقة، حتى لمح الشيخ يتململ في جلسته؛ فأطلق لحنا مجنونا من عقاله؛ فتأججت الكلمات التي فيها من التحدي مثلما فيها من احترام المقام:

ياشيخ ياللي في المضاييق ننخاكْ
قم فكنا يا شيخ شحت علينا الختومِ
أنت الزريعي الكل يسمع بطرياك
مثل الثريا زايدة ع النجوم
أنت الزريعي الكل يسمع بطرياك
ريحك على الحكام ريح سموم

تحتك حصان مسه زغاريت
ولا رعد أول هبوب الوسوم
حمدان هذا من صغاياكْ
وانا عبدٍ للحج عيد البسومِ
عنده أجواد مكلفة مثل يمناك
ومحضرة لكل ساعة لزوم..

رفع الشيخ يده، فقفز أبناء العشيرة إلى العبد، ونزعوا الربابة من يديه، خوفا من تحول النغم عن التحدي، واحترام المقام، إلى الهجاء، الذي ستردده الألسنة في الصحراء. انت فرج. سأل الشيخ. بشحمه ولحمه. رد فرج. قوموا عشوا الضيف. قال الشيخ موجها الكلام لفرسان قبيلته. لا والله يا شيخ، ما يدخل عشاك بطونا قبل ما تنفك إبل الملاحي. أقسم فرج. وهي مفكوكة. قال الشيخ. أكل فرج والملاحي عشاءهما، وناما كما ينام السادة. في الصباح سار معهما الشيخ يودعهما، هما ماشيان والشيخ مترجل عن فرسه، وحين أوشكا أن يخرجا من حدود قبيلته، وعدهما بأن تلحق الإبل بهما خلال أيام.

* * *

قام عودة من فوق الحجر، وأقترب من السلك ينظر للجيبات العسكرية، تمخر المدينة الساكنة، من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، في الناحية الأخرى. والجندي الإسرائيلي، القابع فوق البرج، يتحرك ضجرا. يعود ويضع المنظار على

عينـــيه، ثم ينزله، ليصفر بلحن، يسترده من ذاكرته، بعدها ينظر في ساعته متأففا.

جـــاء جندي الأمن المركزي يسوق النبي على عودة، أن يبعد مـــن هنا لأن الضابط هيمر دا الوقت، وبلاش تتسبب لنا فى أذية. وبيـــنما عودة يفكر في الطريقة، التي سيبعد بها الأذية، عن جندي الأمـــن المركـــزي، دون أن يفقـــد قدرته على مراقبة مدخل بيت إبراهيم الهمص وراء الأسلاك، وصل عساف، راكبا الموتوسيكل، بعـــد أن عـــبر النصف الجنوبي، من شارع صلاح الدين. يللا يا عـــودة، اركب وراي، مصلح العزامي جا. قال عساف. متى جا؟. رد عودة. اركب وراي نبعد عن هالمكان. قال عساف.

***

كان مصلح العزامي مع عشيرته، حين عبرت الحدود متجهة إلى إسرائيل. العشيرة، التي ينتمي إليها مصلح، واحدة من عشائر قبـــيلة العـــزازمة، التي تسكن صحراء النقب (سنرجع إلى الوراء خطوتيـــن؛ فحيـــن جـــاء الضباط الإنكليز، ليحدوا حدا بين مصر والشـــام. ثمـــة قبائل، ومن خلال علاقات متشابكة، استطاعت أن توحد أرضها. بينما لم تستطع أخرى ومنها قبيلة العزازمة، فألحق الجـــزء الأعظم منها بالشام وظل جزءا صغيرا في سيناء). أعلن بـــن غوريون قيام دولة إسرائيل، فأرسل الملوك العرب عساكرهم لتحرير فلسطين، وقامت حرب ثمانية وأربعين. تراجعت الجيوش العربـــية منهزمة، ومن بينها عساكر الملك فاروق. فاكتفى اليهود، تلك السنة، بالحد الذي خطه الإنكليز، ولم يتقدموا بعده.

بعد الحرب تحسس الكل رأسه؛ فوجد العزازمة غالبية رؤوسهم، وقد صارت داخل إسرائيل. ولكن جزءا من هذه الرءوس، صار ينفذ عمليات جاسوسية، لمصلحة الأنظمة العربية، وزاد الطين بلة، حين نفذوا عملية، كان نتيجتها قتل عنصر إسرائيلي، هو صديق لأخت واحد من ضباط الوحدة **101**؛ فقرر أريئيل شارون أن يبيدهم نهائيا. في **1953** قاد شارون الوحدة **101**، وفي وضح النهار، أخذ هو ورجاله يطلقون الرصاص، في كل اتجاه، لا فرق بين إنسان وحيوان، وبعد نهب كل ممتلكات العزازمة، أشعل النار في بيوت الشعر، وطارد الفارين، بهدف تصفيتهم نهائيا. لاذ من نجا، بأقربائهم الساكنين جنوبي الحدود. استقبلتهم مصر، وأعطتهم الجزء الملاصق للحدود من أرض أقربائهم؛ لينصبوا خيامهم فيه، إلى أن تحين اللحظة، التي يقرر فيها العرب الهجوم على إسرائيل، وتحرير فلسطين. كان القسم الأول من العزازمة متجنساً بجنسية إسرائيل، والقسم الثاني مصريا، بينما ظل عزازمة **1953** بدون جنسية، ومن صلب أب من هؤلاء خرج مصلح.

وبالفعل حانت اللحظة، ولكن إلى العكس، فاحتلت إسرائيل، في ست ساعات، معظم الصحاري العربية، في حزيران سبعة وستين، ومن ضمنها صحراء سيناء، فامتدت الإمبراطورية الإسرائيلية، من القنيطرة شمالا إلى القنطرة جنوبا. بُعيد الحرب، تفرع عن التقسيم التقليدي، الذي قسم المنطقة إلى قسمين، إسرائيليين وعرب، أن صار العرب نوعين: نوعا يحمل الجنسية

الإسـرائيلية. والـنوع الثانـي، وهم العرب المحتلون سنة سبعة وستين، حملوا هويات، لم ترد فيها خانة الجنسية، واستبدلت بخانة القومية، التي كتب أمامها، باللغتين العربية والعبرية: عربي.

***

الآن سـأخبرك، لماذا جن المشمار كفول، حين رأى هوية عسـاف، جنون الشرطي مرده، أن عساف يحمل هوية من النوع الثانـي، وهـذا النوع من الهويات لا يسمح لصاحبه بالتواجد في منطقة عسكرية.

***

اسـتخرج العزازمة بطاقات من النوع الثاني. ودفع بمصلح أبـوه (وبحماقة ليس لها نظير) إلى المدرسة، وكان حريصا على ذهابـه. في أحد الصباحات، وبعد أن أكل مصلح رغيف الصاج، وشـرب صـطل الحليب، الذي تحلبه أمه كل صباح، من ضرع العـنز، تحت تعليمات الأب المباشرة، قام ولبس البنطلون، ثم خلع الجلـباب ولبس القميص، واستعد للبس الحذاء، الذي حفر أبوه في جنبـيه الداخليين، علامتين صغيرتين، على شكل مثلثين رأسيهما إلـى أسفل، كي يميز مصلح بين اليمنى واليسرى من الفردتين. لم يجـد مصـلح الحـذاء؛ فذهـب للمدرسة حافيا. وحين وقف أمام الطـابور، لـيقرأ نشـرة الأخبار، كما يفعل كل صباح، وحتى لا يكتشـف أحـد حفاءه، دفن قدميه في التراب. وقف المعلم جواره وهمـس: أنـت حافي؟. آه. رد مصلح منكسا رأسه. اقرأ النشرة وعاود ع البيت. خايف من أبوي إن عاودت.

* * *

لا خطــر علــيك لو ظللت واقفا في مكانك ألف عام، ولكن الخطــورة، التي لا يمكنني التنبؤ بأنك قادر على التحكم فيها، تبدأ حيــنما تتحرك. سواء كانت هذه الحركة إلى الأمام أو إلى الخلف. وإن كانــت الخطــورة أكــثر حين تتقدم خطوتين إلى الأمام، ثم تضطر أن تتراجع مرة ثانية لنفس المكان.

بعــد حــرب **67** وحصول عزازمة **53** على هوية، تقدموا خطوتيــن إلى الأمام. بعدها جاءت اللحظة الكاسحة، التي تطلبت أن يعــودوا الخطوتيــن. كيف حدث هذا؟..مثلا: بالنسبة لمصلح مشت الأمور في حدها الأدنى، يذهب للمدرسة في الصباح، ويعود فــي منتصــف النهار، محتملا بؤسها، وقادرا على التحايل على حماقــات أبــيه، حتى اتفق السادات على أن تنسحب إسرائيل إلى الحــدود، التي وضعها الإنكليز، حين كان دليلهم نعوم بيك شقير، بيــن مصــر والشام. وبالفعل سحبت إسرائيل قواتها، فرفع البدو رايات الحرية، وأعلام مصر العربية.. وغنوا في سمارهم: النسر للجمهورية.. والباقي خرط ملوخية..

أعطــت الســلطات المصــرية عزازمة **1953**، الذين كانوا يرقــبون بحــذر، ورقــة تعــارف، مختومة من شيخين لقبيلتين مصــريتين، تقول أن حاملها يعيش على أرض سيناء. وكان من أول آثــار هــذه الورقة، على مصلح مثلا، أن عملت له (اسكيب) مــن المدرســة. لأن حدود الاعتراف بها، محصور داخل نطاق مســاحة الكيلومتريــن، التي فيها مضارب قبيلته، أمّا إن فكر في

تجاوزها فسيقتاد إلى المخفر، إلى أن يأتي شيخ، واحدة من القبائل المصرية، ويتعرف عليه ويضمنه.

كان أقرباؤهم، من عزازمة ثمانية وأربعين، الذين أعطتهم إسرائيل جنسيتها، قد اندرجوا، مثل باقي عرب إسرائيل، في عجلة الاقتصاد الإسرائيلي، وانتقلوا إلى فصل آخر من فصول التطور البشري. ولأن السكين لا تقسم الماء، فقد صاروا يرمون لأقربائهم، من وراء الحدود، بما يسد رمقهم. وهنا دخل عزازمة ثلاثة وخمسين عش الدبابير؛ فبدأت الحكومة في إيذائهم، وتجنيد بعض الأشخاص، من القبائل المصرية، جواسيس عليهم. فاشتد حنقهم، وكانت البداية، حين أردوا واحدا من الجواسيس قتيلا، ولمّا جاء أخوه، يبحث عن ثأره، ألحقوه به. كادت الصحراء أن تشتعل. لولا أن جلست القبيلتان (قبيلة عزازمة ثلاثة وخمسين والقبيلة التي ينتمي إليها الجاسوسان) وقرر المجتمعون، أن تدفع عزازمة ثلاثة وخمسين **200** ألف جنيه مصري، دية للشخصين (كان هذا قبل أن تتفق القبائل بأن من يعمل جاسوسا يقتل قتلة كلب ولا دية له).

انصاعت، قبيلة عزازمة ثلاثة وخمسين، للقرار. وقبل ميعاد الدفع بليلة واحدة، أودعوا المال في بيت كبيرهم، وأعدوا أنفسهم للنوم. قبل أن يأووا إلى مناماتهم، اشتعلت المنطقة، تحت أضواء كشافات الجيبات. فتشت البيوت، واستخرج المبلغ، ووضعه رجال الحكومة في الجيبات، وقبضوا على البعض، ثم عادوا من حيث أتوا.

أشـــعل كبـــير العزازمة النار قُدام الديوان. وحين تجمع أبناء القبـــيلة، فـــاتحهم فى الأمر: باكر ميعاد الدفع، واللي وراه رقابنا تحـــت بواريـــد القوم، قولوا وش نسوي؟ لملموا أشياءهم سريعاً. وحملـــوا مرضاهم، وكبار السن في البطاطين. ثم عبروا متجهين الـــى الشـــمال. تخطـــوا الحـــدود، فقابلتهم الدوريات الإسرائيلية بالكشـــافات. ألزمتهم أماكنهم.. على الحافة الشمالية للحد. رحلونا لـــلأردن، اقـــتلونا، حطونـــا ف جهنب. بس لا تردونا ثاني. قال العزازمة بصوت واحد.

انقلبـــت الورطـــة علـــى رأس الـــرجل، الذي هاجمهم، بُعيد منتصـــف الليل بعسكره، إذ زعم الرجل في محضر تسليم المال، بأنـــه لم يجد سوى عشرة آلاف جنيه. ولولا أن له واسطة عظيمة الشأن في الحكومة، وهي نفسها التي أدخلته كلية الشرطة، لضاع المســـكين فـــي توكر. إذ أن المشكلة خرجت من حجر السلطات، وذهبت لمنظمات حقوق الإنسان.

***

الفـــارق بيـــن ســـيارتي، وسيّارة مصلح، ليس في الماركة، فالاثنتيـــن من طراز تويوتا. ولكن سيارتي تعمل بالسولار، بينما ســـيارة مصلح تعمل بالبنزين، سيارتي قديمة، سيارته حديثة جدا، ينفـــتح فـــيها الصباب الخامس أوتوماتيكيا حين يتجاوز مؤشرها المائـــة كـــم/ساعة. سيارتي لا تضفي عليّ أية مهابة عند رجال الأمن، حين يرون سيارة مصلح تركبهم العفاريت، سيارتي تويوتا عادية، بينما سيارة مصلح ومعها كلاشينكوف، طموح البدوي.

تلقف البدو هذا الموديل من السيارات، وفي مزايدة على الشركة اليابانية المصنعة، أطلقوا عليها اسم لاعب كرة القدم الشهير مارادونا، والسبب ليس تشابهها مع اللاعب الدولي، في صغر الحجم، والخفة والسرعة المتناهية، والقدرة على مراوغة الخصم فحسب، ولكن يبدو أن التشابه الأعظم بينهما، يكمن في علاقة كل منهما-السيارة واللاعب- بالمخدرات.

***

حين رسمت الجيبات الإسرائيلية بأنوارها، ما يشبه القوس، انحشر عزازمة **53** في نصف دائرة، قطرها خط الحدود. نجح بعض الشباب في التحايل، إذ ارتدوا إلى الخلف، اجتازوا الحدود وكأنهم عائدين إلى مضاربهم في سيناء. ثم ساروا بموازاة الحدود. وحين تعدوا طرف القوس، اجتازوا الحدود إلى إسرائيل، وكان مصلح واحدا منهم.

وبعد ثلاث سنوات ها هو يعود بسيارة، كانت السيارة المندسة في طرف سياج الجريد، المطوق به خيمة عساف، تبدو خلف الطين والرمل الملتصقين بجوانبها، والذين يكادان يخفيان لونها الأبيض، فاخرة وجديدة. أما الذي زادها جمالا، في عين عودة، فهو وجود تلك الماسورة بجانب شكمانها. هذه الماسورة، الموصولة بالكمبريسور، تستخدم في حالات المطاردة، أكانت مطاردة من السماء، أم من الأرض. تنطلق المارادونا، تواصل نهبها للأراضي الوعرة، ثم يفتح سائقها الكمبريسور، فينطلق

الهواء من الماسورة، على الأرض، عند مؤخرة السيارة؛ فيحولها إلى عاصفة، تفقد المطارد الرؤية والقدرة على التصويب.

عرف مصلح، حين سمع صوت الموتوسيكل، يقترب من البيت، أن الذين فوقه عودة وعساف، فأقبل من الخلاء، الذي يطوق البيت، يمسح يديه فى التراب. شفت، اللعين، بيمسح ايده فى الرمل، حتى نقول كان بيبول. قال عودة. ما بيبول، مندس حتى يشوف الدني قبل ما تشوفه. رد عساف.

تصافحوا. وبصعوبة ولج الثلاثة البيت، بسبب السيارة، المندسة في السياج. نشر عساف المفرش على الأرض، فأزاحه عودة وافترش التراب، فلملمه مصلح ووضعه تحت وركه. هلا يا مصلح. وأيش جابك هالساعة. قال عودة. جئت لأراكم، والسجيج أقبل، وناوي أتصيد هالسنة، قال مصلح.

***

الكلمات التي يقولها جد عودة، حين يلعن: جرو، كلب، ظيخ، لفعي (يستخدمها في وصف بعض الحريم)، جدي، عنز، تيس، حمار، جحش، غراب، بومة، حدية، كبو، فلو، أبو الشويك، حربي.. وحين يمدح: ذيب، نشمي، صقر، حصان، بكرة، جمل، بعير، فهد، ثلب، هام.. يستخدمها حين يقول: خلك في دربك، ع طول، زي الهام.

تذكر عودة -الذي شرع في إعداد الشرك- هذه الكلمات، التي يستخدمها جده في وصف الناس، وحين يصل عنده.. يغني: صاحبي صقر. وأما الكبيدي رماه. لماذا لم يشبههُ بالصقر مثلا.

ثـم أن عودة يعرف الصقر، ولكنه لم يكن قد عرف الكبيدي، ولا كيف يرمي الصقر، الذي يبذل الإنسان مجهودا عجائبيا، ليوقع به، كثـير مـن الصبر والحيلة والصمت. فهذا الباشق، الذي لا يقرب مـنطقة -إذا جالها بعينيه الثاقبتين ورأى- فيها أثر لحمار أو كلب أو إنسان، لذا يضطر الصيادون -ولكي يواروا أثارهم عن نظره- أن ينصـبوا خباء، لا تظهر منه غير فتحة صغيرة، يراقبون منها الشرك المنصوب، انتظارا لمرور الصقر، ووقوعه في الفخ.

قـد يكون الشرك حمامة، أو طائر الكبيدي، أو أي شكل آخر مـن الشـراك. ولكـن الصيادين، وإمعانا في التلاعب بالصقر، يفضـلون الكبـيدي والحمامة معا. يربطونهما في حبلين طويلين، يثبـتون طرفي الحبلين في الأرض، ثم يرخونهما ليبدءا -كل من الحمامة والكبيدي- في الطيران. وحين يمر الصقر، ويرى المشهد مـن سـمائه العالـية، يحسـب أن ثمـة مطاردة بينهما؛ فينقض كالصـاعقة علـى الكبـيدي، ليقضـي عليه، قبل أن يتوجه إلى الحمامة، وبأصابعه القوية والطويلة والجميلة، يفض صدرها، يأخذ قلـبها بيـن مـنقارية، ويترك باقيها للطيور والوحوش والكلاب الضالة، ثم يرفع رأسه، ويفرد جناحيه، صاعدا إلى حيث هبط.

أمـا الصياد؛ فيلصق الشرك على الكبيدي، عارفا أن الصقر سـتعميه، ثقته الفائقة في قدرته، على التحدي وحبه للاستعراض، عـن رؤية، الفخ على ظهر الكبيدى. رغم حدة النظر، التي وهبها الله، لهذا المخلوق.

لهـذا تقـع الصقور عادة في الفخاخ. قال عساف، الذي كان يشعل نار الصباح، مخاطبا عودة، الذي مايزال يعد الشرك. تقصد أن الصـقور يعميها كبرياؤها. رد مصلح، الذي كان يُحكم الغطاء علـى المارادونـا، بعـد أن دسها تحت جذع سدرة، كي لا يراها الصقر، لحظة مروره فيتسامق.

أشـعل عساف النار، وضع براد الشاي قربها. قام وملأ كفيه دقيقا، من شوال كانوا قد أنزلوه، من صندوق السيارة مساء أمس، قبل أن يخلد الثلاثة إلى النوم. وضع الدقيق في إناء ثم صب عليه المـاء، وبـدأ يلـوك الخلـيط بأصابعه، وحين تحول خليط الماء والدقـيق إلـى عجين، فرد طرف الكيس، الذي فيه الدقيق، على الأرض، بعـد أن سـواها، ثـم غطى الطرف بالطحين وأخرج العجيـن، وسـواه علـى شكل قرص، وضعه على طرف الكيس المغطى بالطحين، ظل يوضب القرص بهدوء، حتى صار مدورا كالشـمس، وحين تحولت النار إلى جمرات، أبعدها بعصا في يده، وبعـد أن وضـع القرص مكانه، غطاه بالجمرات وتركه ينضج بهدوء، ملأ كفه سكراً، ووضعه في البراد، وحط البراد في طرف الجمرات. حينما بدأت الفقاعات تخرج من جوف البراد، أبعده عن الـنار ثم أخذ يتحسس القرص بالعصا، من أطرافه المختلفة، أبعد الجمـرات، وأخرج القرص، بعد أن قطم العصاة قطمتين، أمسك بكـل قطمة منهما في يد، ثم أدخلهما تحت طرفي القرص، ورفعه بهـدوء. قلـب القرص على الجهة، التي لم تنضج بعد.. وغطاها بالجمرات.. ملأ أصابعه شايا، وضعه في البراد، وقربه من النار.

تحســس الرغــيف- الذي لا يزال مدفونا تحت الجمر- من أطرافه ببقايا العصاة ، وحين تيقن من نضجه، أزاح الجمر جانبا، ثــم أتــى بحطبة كبيرة، ألقى بالقرص فوقها، ونفضه مما علق به بقطعــة قماش، نظفه وقسمه إلى أربع فلقات، غسل ثلاث فناجين، وصــب فيها الشاي، ناول لكل واحد من الشابين-عودة ومصلح- الذيــن تحلقا حول النار فنجانا، ثم قرب كسرات الخبز من متناول أيديهمــا، فــبدأوا فــي قضم الخبز وارتشاف الشاي. حين بدأت الشــمس تتعالى، أهال عساف التراب على النار، وشطف الفناجين والبراد، ثم دسهما وشوال الدقيق تحت السيارة، ودخل الثلاثة إلى الخيمة.

تمــدد عودة على بطنه، كان شبه عار من غير سروال يخفي الجــزء الأسفل من جسده (ظب بطنك يا رجل).. قال مصلح ثم ذهــب بعينــيه إلى الفتحة، ليرى الخارج، وليرقب وشيشا سمعه يجــتاح السماء. كان وشيش طائر عابر، لم يكن صقرا ولم يتوقف عند الشرك.

***

غابــت الشــمس؛ فسبق مصلح العزازمة رفيقيه، منسلاً من الخيمة، وتبعه -عساف وعودة- خارجين منها، توجه مصلح إلى سيارته، أدار محركها -ودون أن يشعل أنوارها، إذ لم يكن الظلام قــد أطبق بعد- قادها إلى الشمال الغربي. ظلت السيارة سائرة - بينما مؤخرتها تهتز اهتزازات خفيفة- حتى توارت عن الأنظار.

فـــتح عساف الراديو، وضبطه على إذاعة لندن، وقام عودة، وأحضـــر حطـــبا، أوقـــد النار، علا اللهب.. فتراجع عساف إلى الـــوراء.. ثـــم أخرج كيسا بلاستيكيا، به تبغ ودفتر أوتومان، وبدأ يلـــف ســـيكارة، أشـــعلها. أعاد دفتر الأوتومان في مكانه، ومده والكـــيس إلـــى عودة الذي أشاح بيده، ثم أدخلها في جيب جلبابة وأخرج علبة سكاير.. سلت سيكارة.. أشعلها واستلقى على ظهره، يتأمل القمر الذي أخذ يصّاعد جارا معه الزهرة.

***

أســـتطيع أن أتخـــيل الرعب الذي طوى عودة، حين رأى كيس التبغ بين يدي عساف. وإن كنت أعرف أن إشعاله للسيكارة، ثـــم استلقائه على ظهره، متصنعا نفث الدخان بهدوء، هو محاولة منه لضرب عصفورين بحجر، أن يداري خوفه وأن يعقلن/ يعلمن رعبه من القوانين.

رعبه من القوانين، يجلب عليه سخرية مصلح وعساف، الذين يردان السبب في رعب عودة بكونه ع الجسر الفاصل بين البداوة وغيرها. وبما أن عودة يعرف، من كثرة ترداد عساف للمعلومة، التـــي حفظهـــا عن راتشيل، عند أذنيه: أن البدو القدماء يقدسون الزهـــرة، ويقـــربون لها القرابين، ويعتبرونها بنت القمر، ومن ثم فهو حين ينظر إليها يقول، بشكل غير مباشر، لعساف: حتى وإن كانت القوانين ترعبني، فأنا لا زلت بدويا ولكنها بداوة أخرى.

***

كثـيرون دخنوا ذلك النوع من التنباك، جدي مثلا كان يدخنه فـي غليون كان في الأصل بزبوز، نزعه من براد صيني، وعلم عمـي التدخيـن، خصيصا كي يعتني بشتلاته. كان هذا قبل منع تدخين هذا النوع وزراعته.

أسـتطيع أن أتفهـم منع الحكومة لأي شيء (ألم تمنع إحدى الحكومـات أكل الملوخية من قبل؟) إلا أن الذي أجد صعوبة في فهمه، هو الكيفية التي تم بها منع تبغ ما.. تم زراعته في سنة ما. ثمـة نـوع من التنباك، هو الدخان العربي، يزرع كما يزرع أي نـبات شتوي، في أول شهر فبراير، ومن ثم يحصد في مايو. هذا عن نوع التبغ.. فأي سنة هي تلك.؟

وقـبل الإجابة على هذا السؤال، دعنا نتخيل أنك تعيش تحت حكـم دولـة، يجيز قانونها زراعة هذا الدخان العربي، ثم ابتعدت هـذه الدولة لسبب أو لآخر، وحلت محلها دولة ثانية، قانونها يمنع زراعـة التبغ. في مثل هذه الحالة، عليك الانصياع لقانون الدولة الجديدة.. جيد..

زرع الـناس فـي سـيناء التـبغ، وانتظروا حصاده، ولكن إسرائيل، التي لا تحرم قوانينها زراعته، انسحبت في إبريل. ماذا فعلـت مصـر حيـنما حلـت محلهـا؟. وأرجو ألا يغتاظ غير المصريين، فأنا أتيت بمصر مثالا لأنها، ولا شك أن الكل يعرف، دولة قديمة، أقدم من كل الدول، سواء تلك التي قامت بعد معاهدة ويستفاليا أو قبلها. ومصر لها حضارة بعيدة بعيدة، أبعد مما يتخيل مـثلا حمـدان أبو كايد (لماذا حمدان؟ لأنه يقول: آني تعاملت مع

مايـــة دولـــة ف هالدنـــي، ما دولة منهن خلت ظهري يعرق، من الخوف، غير مصر).

وتـــاريخ مصر ضارب في عمق الزمن، رغم أنف الملعون zaky sugar الكـــردي التركي، والذي إن قبضت عليه سأحفر لـــه في عرض الصحراء، وأهيل عليه التراب، لأنه يضيف على الســـت آلاف ســـنة، التـــي قالها السادات، أربعة أخرى (بخشيش حســـب تعبـــيره) .. وحتى لا يأخذني الحكي بعيدا، والحكي كما تعرف ذو شجون، نعود للتبغ وزراعته.

لأن القوانيـــن المصرية، تحرم زراعة التبغ، جردت مصر، حملات هائلة، لتجريد البادية من تبغها. عساف يرى أنها وجدت، في هذه الحملات، مظهر من مظاهر قدرتها على القمع والإبادة.. ويضـــيف: كانوا في كل حملة يلوحون بإصبعهم، إننا نمتلك القدرة على الإيذاء، و لمزيد من السحق، والكلام لعساف، كانوا يجبرون صـــاحب التـــبغ على قلع تبغه بيده.. أحدهم كان يقلع النبتات وهو يصـــيح: تحـــيا مصـــر.. فزغده الضابط: قولها من قلبك يا شيخ العرب.. انتهى كلام عساف. أما عودة، ففي كل مرة وما أن نفتح الموضـــوع، حـــتى يفاجئنا بقول مختلف. ولكني أقدر على إجمال أقواله، في ثلاثة راكبة فوق بعضها، مثل طبقات التاريخ:

الأول قالـــه وهـــو مـــتمدد علـــى بطنه، يضبط الشريط في المســـجل، علـــى أغنـــية أبـــو بكر سالم (لا تنادي): لو قالت لي الحكومـــة تعـــال، يـــا شـــيخ العرب، قل رأيك، فسوف أهبط من مضاربي حافياً، آخذ درب السلطان (وحتى لا تزعل مني الحكومة

سأقول طريق حورس) جرياً حتى أقف أمام بابها، ولأن بلاط الحكومة ليس به تراب، كي أدفن قدميّ فيه، مثلما فعل مصلح، وهو يقرأ نشرة الأخبار، في طابور الصباح، فسوف أدس قدميّ، تحت سجاد الحكومة الأحمر، ومثلما تكلم موسى، في حضرة الفرعون، بكل أدب، سأقول: يا حكومة.. دعي الناس يحصدون، تبغهم هذا العام، ومن يزرع تبغا بعده، ارميه تحت عجلات الدبابات، تماما مثلما رميتي كل أعداء مصر (وحتى لا تعتقد الحكومة أنني أقصد إسرائيل فسوف أضيف فورا) عدو مصر يا حكومة هو الحفاء.

الثاني قاله، وهو يُحضر الأكياس، ليأتي بتموين الكامب الأسبوعي من نويبع: لمصر حكومة خبرتها ستة آلاف عام، ولكنها خبرة في إدارة الترع، ومصارف المياه، لذا فإنها حين لقيت بشراً، تربست آلاتها. ولأنها عاجزة عن رؤية المشهد بأكمله، وجدت نفسها تتحرك من كثيب إلى كثيب، وستجد نفسها بآخره، وقد زلت الدرب، تغوص في كثيب منها. أما رأيه الثالث فقاله لي حين كان جالساً جواري في الكابينة، بينما يتمدد عراة في صندوق السيارة خمسة سياح، ثلاث بنات وولدان، حين سألته عن رأيه في الموضوع، نظر إليّ من وراء دخان الطرينة، وقال: رأيي سأطويه جيدا، ثم أدسه في منطقة آمنة من رأسي. وحين يأتي الصيف، سأختار ليلة خمسة عشر، من شهر قمري، واجلس على ركبتيّ، وكأني في وضع الصلاة، سأنحني إلى الأمام، وحين

أصـــير متكئا على كوعيّ، أخرج المطويّ في رأسي، وأدسه في أذن عساف.

***

كف عودة عن النظر إلى القمر، حين سمع صوت المارادونا. تدلى مصلح من وراء المقود، والتف نحو صندوقها، ثم أقبل، يجر غزال ذبيح من أذنيه؛ فقفز عودة يعد النار لاستقبالها.

(رأيـــتُ هذا الغزال، يقفز من تحت مثانة وينطلق، طاردته، وكنـــت أكدمـــه كدمـــات خفيفة، بمقدمة السيارة، حتى توقف عن الركض، تناولته، تذكرتُ أن ليس معي سكين، ففصلت رأسه عن جســـده بحجـــر) قال مصلح، ثم أشاح بوجهه، مسلطا عينيه، على جـــبل صدر الحيطان. نظر رفيقاه إلى حيث نظر؛ فرأوا النار عند قدمي الجبل. وضع مصلح نعاله في رجليه، وتوجه نحو السيارة، التي لا يزال محركها يضج بالصوت. اذهب على قدميك، حتى لا تثـــير سيارتك، التوجس للموجودين عند النار. قال عساف. همهم مصـــلح، الذي تذكر حجم الشك، الذي سيركب رؤوس المتحلقين حـــول النار، حين يروا ضوء سيارة أو يسمعوا صوت محركها، آتـــيا من بعيد. قم وأطفئ المحرك.. قال لعودة وبعد نصف ساعة، اتـــرك عســـاف، يشـــوي الغزال واتبعني، سأكون بينهم، وحينما تصل، سأعزمهم على العشاء.

***

بيـــنما يمـــتلىء أنف عساف، برائحة الشواء، تذكر تلك المرة الأولـــى، التـــي شوى فيها اللحم، من سنوات مضت شوى جديا.

جـــاءت راتشـــيل بخمسة عُصيات ناشفة وقوية قطعتها، بسكينها المخـــتوم بعلامـــة التساهال، من شجرة سدر. حفر عساف حفرة ملأها حطبا، وأشعل فيه النار، ثم تناول أربعة من العُصي، وعقد كـــل اثنتيـــن منها، فصارتا مثل حرف X. غرزهما على جانبي الـــنار، وأدخـــل العصاة الخامسة، من رقبة الجدي، وأخرجها من مؤخـــرته، بعـــد أن سلخ جلده، ونظفه من كرشه، ثم حملاه –هو وراتشيل– كل من طرف، وثبتا طرفي العصا، فوق العقدتين.

كانـــت راتشـــيل، واحدة من الذين يترددون على الكافتيريا– التي على شكل باص– والمنتصبة أمام المعسكر، حين كان عساف هـــو المدير والعامل والسقاء فيها، تأتي وحيدة في الغالب، تختار ركـــنها بهدوء، تطلب صفيحتي مكابي، تشربهما، ثم تطلب الثالثة، أحـــيانا تصـــبها فـــي جوفها، وأخرى تدسها في حقيبتها الخاكي، وتنتصـــب واقفـــة، تعلـــق حقيبتها على كتفها، تدفع الحساب، ثم تنسحب، مخلفة صفائح المكابي الفارغة، فوق طاولة البلاستيك.

اقـــترب منها عساف حين جاءت متأخرة، وقبيل موعد إقفال الكافتيريا بقليل، ليلتها كان عساف قد نوى السهر، فتحت راتشيل، كعادتهـــا، الثلاجة وحين لم تجد طلبها سألت: ما فيه مكابي؟. رن صوتها في أذن عساف.

- بـــاروخ هابـــا.. قال لها، وهو يتناول صفيحتي مكابي، مندستين في قعر الثلاجة.

- أخلـــى فـــ أخلى.. صاحت، حين انطلق، صوت وشيش البـــيرة صاعدا، عندما أدخل عساف إصبعه، في الحلقة المعدنية، للعبوة ونزعها.

- أخلى فيمئود أخلى. قال وهو يناولها العلبة المفتوحة، بعد أن نزع الحلقة المعدنية، التي تغطي الثانية، وقربها من فمه، وعب منها.

- أريد صفيحتين. قالت.

- كنت أحتفظ بهما لنفسي.. ولكن عز علي أن تعودي دون أن تشربي..

- تودا لخ.. قالت.

***

كـــان القمـــر يرســـل أشعته الكثيفة، على سطح الجبل، فيما الأحجـــار -المـــتعدد لونهـــا- تلمع حين تعانق الأشعة، سطحها الأملـــس، فتـــبدو مثل لوحة صامتة، وألسنة النار المتصاعدة، من الحفـــرة تشـــوي اللحـــم، وعساف الذي يُدوّر العصا، الداخلة من مؤخـــرة الجـــدي والخارجة من فمه، بين لحظة وأخرى يراقب راتشيل، المتمددة على ظهرها، تنظر إلى السماء، وتدندن بكلمات أغنية يمنية.

لقد سلب هذا القمر، عقول أجدادي، منذ ثلاثة آلاف عام، لمّا مروا من هنا، في طريقهم إلى أرض كنعان؛ فظلوا يدورون حول أنفسهم، أربعين سنة. ثم أخذوا معهم، إلهكم ولغتكم ورحلوا. قالت راتشـــيل، التي امتلأ أنفها برائحة الشواء، فتذكرت الساندويتشات،

التي كانت ترميها في سياج البروشيم، حتى لا يسخر زملاؤها في المدرسة، من الأكل العربي، الذي تعده لها جدتها، حتى تأكله في الفسحة. قلت لي أن يهوه رب الزلازل، والبراكين في سيناء القديمة. فما حكاية الحروف؟ قال عساف. وبعد لحظة من الصمت قالت: اكتب عساف بالعبراني، ثم انظر إلى هذا الهلال الذي فوق رأسك، وقارن بين الحروف وبينه، ثم تذكر العصا، التي أعطاها جدكم، جوباب بن رعوئيل المدياني، للنبي موسى وستعرف قصدي. كل حروفنا، مكونة من هلال وعصا. القمر هو السين. والسين هي سينياء. سينياء هي سيناء. أما العصا فعصى جدكم جوباب. عند هذا الحد أرتبك عساف؛ فهذه المرأة تكاد تُكسر كل ما أعتاد الفخر به، قبيلته ومآثرها، لتخرج من صلب التاريخ فخر آخر. ولأنه لم يقدر على مجاراتها، استند على راحتيّ يديه وهب واقفا. أنقذه وقود النار الذي شارف على الانتهاء. بحث عن حطب يضعه تحتها، كي تواصل الشهباء (كما يحب دائما أن يصف النار) شعللتها، فلحقت به راتشيل: أعرف مكانا مليئا بالحطب، رأيته قبل الظلام، وأرجو أن نقدر على الوصول إليه.

وضع عساف الحطب في النار، واتكأ ينفخها، فعابث الدخان المتصاعد لحيته، وغطى وجهه فدمعت عيناه، مسحهما بظهر يده وفركهما بأصابعه، ثم التفت إلى راتشيل: كان أبي، وهو رجل بدوي قاسي جدا، يعلمني إيقاد النار أكثر مما يعلمني الصلاة، فأنا لا أذكر يوما وقف على رأسي يعلمني الوضوء، ولكني أذكر التقريع، الذي يصبه فوق رأسي، حين أفشل في إيقاد النار. في

الحرب العالمية الثانية، أعيا جدي الإنكليز، كان يشعل النار، أمام بيته، الذي نصبه فوق أعلى مكان، كان الإنكليز، يأتون على خيولهم، يشيرون إلى الطائرات في السماء، ويقولون: هتلر. بينما جدي يشير إلى النار ويقول: ضيف.

***

سحب الضوء، المنبعث من كشافات المارادونا، عساف من ذكرياته، وألقى به مرة واحدة على سطح الواقع. حدد له مصلح دوره بكل دقة: أن يشوي الغزال، وينتظر حتى يذهبا للنار المشتعلة عند قدمي الجبل ويعودان.

حضرا إذن يا عساف. قال لنفسه ونظر إلى ضوء السيارة يعلو على شكل عمودين، يشقان ظلمة الفضاء، ثم يهبطان، ليحطمان قدرته على النظر، كان الضوء يصعد، كلما أرتفع رأس المارادونا، وينزل كلما هبطت مقدمتها، في حركات فوضوية ومتتالية، بسبب النتوءات الرملية، النابتة على سطح السهل، المنبطح من الأرض، الذي تواصل المارادونا نهبها له.

طوقت المارادونا المكان بأنوارها، من صندوقها الخلفي تدلى مصلح، وفي يده كيس أبيض، ملفوف على شيء، لم يستطع عساف، الذي كان جالسا على ركبتيه جوار النار، يعتني بالغزال الذبيح فوقها، أن يتبينه، وضع مصلح الكيس جانبا، ثم امسك بيدي رجل مُسن، وبدأ في مساعدته على النزول، من الصندوق. من الكابينة هبط عودة، الذي كان وراء المقود، ومن الباب الآخر هبط

رجـــل، اســـتطاع عساف أن يتبين أنه في الخمسينيات من عمره. تحلق الأربعة حول النار، بعد أن صافح عساف الرجلين.

ما أخبار هذه التي على النار ياعساف؟ سأل مصلح.

سأعدها حالاً.. هات الماء ليغسل الرجال أيديهم. رد عساف.

هات البراد يا عودة. قال مصلح الذي قام ليحضر الماء.

.....

بعـــد العشاء تناول أحد الرجلين، الكيس الأبيض وأخرج منه ربابـــة، وضعها قرب النار. وبينما عودة يصب الدور الأول من الشاي، أخذ الرجل الشفطة الأولى وتناول الربابة، مسدها بأصابعه بهـــدوء وحميمـــية، وجرب لحنا. هز رأسه بتبرم ووضعها جانبا، ليشـــفط من فنجان الشاي ويعيده على الأرض، ويقرب الربابة من النار، لتقدر على استيعاب اللحن.

تســـلل الـــدفء بيـــن أوتارها؛ فبدأت في بث همسها، ابتسم الـــرجل ابتســـامة خفيفة- لمعت على إثرها أسنانه الفلجاء، شديدة البياض، حين انعكست عليها الأشعة، التي يرسلها القمر- فانطلق اللحن حزيناً ومدوياً:

....

يا طيور حومة يا طوال الصناقير

أوصيكن ع لحم فهيد لا تنقدنه

كم عودة طوح لها الرمح تطويح

وخلّى اللحم لعشوشكن تنقلنه

يا سربتك يا فهيد سيوف مصاقيل

خيط الشعر يا فهيد ما يقطعنه

(....)

- هذا مسلم الهيب من الأردن يا عساف. قال مصلح.
- مرحب بالشيخ مسلم. قال عساف.
- مسلم الهيب جاء عابرا، أردني مهاجر من النقب. قال الرجل الثاني.
- من بئر السبع يا شيخ مسلم..؟ سأل عساف.
- أي نعم.. من بئر السبع.. من قبيلة الحويطات. رد مسلم الهيب.
- رحلت إلى الأردن سنة **48**.. ولم تلحق أن ترى عودة ابن تايه. قال عساف.
- رايته.. رايته مسنا.. فالرجل كبر حتى تعدى التسعين. رد مسلم الهيب.

***

".. في يوم من أيام نيسان، دخل رئيس التشريفات على فيصل، وهو مجتمع بلورنس، في جلسة مهمة، وتقدم نحوه بحماسة ظاهرة، ليهمس في أذنه خبراً، كان يعرف بأنه سيسره جداً. والواقع أن لورانس، لم يستطع أن يخفي شعوره بالسرور- فور معرفة الخبر- بالرغم من الجهد الذي بذله، لضبط أعصابه وكتم مشاعره، وقال بلهفة: ماذا تقول؟! أعودة هنا؟! اسمح له بالدخول فوراً.

أزيـــح ســـتار مدخل الخيمة، ودخل رجل طويل القامة، قوي البنية، ذو وجه كوجه الصقر. كان عودة ابن تايه، واحداً من كبار زعمـــاء قبيلة الحويطات، وواحداً من زعماء القبائل، الذين كانت حـــياتهم أقرب إلى الأسطورة. عشائر الحويطات، تفخر بأنها من الـــبدو الخلص، وكان عودة نموذجا لسيدهم. فهو مشهور بضيافته السخية. وأبقاه سخاؤه فقيراً دوما، بالرغم من فوائد غزواته، التي قـــدرت بمائة غزوة. تزوج ثمانية وعشرين مرة. وقام بقتل خمسة وسبعين رجلا، خلال المعارك التي خاضها، ومما يذكر أن الشيخ عـــودة، صرف حوالي أربعين عاما من حياته، في شن الغزوات ضد الأتراك.

ويقـــال أن الشيخ المحارب الشجاع، والذي حنكته الأيام، كان ســـريع الغضب حاد الطبع، لكنه قوي الإرادة، بحيث يستطيع أن يضبط أعصابه، ويكتم غيظه متى شاء. كذلك يقال أنه كان سريع اللجـــوء إلـــى أعمـــال العـــنف والـــبطش. ومقابل كل ذلك، كان متواضـــعا، صريحاً، أميناً، مخلصاً، طيب القلب، وكان أصدقاؤه وأعداؤه على السواء، يكنون له كل مودة ومحبة وتقدير.

لبث الشيخ عودة ابن تايه واقفاً، في الخيمة بضع دقائق، دون أن ينـــبس ببنـــت شفة، وكان خلالها يتبادل وفيصل، الابتسامات والـــنظرات المفعمة بالمودة، والأمل والتفاهم. وبعد لحظات، تكلم الشيخ عودة، وقال: سلام الله على سيدنا، وقائد المؤمنين..."

* * *

فـــي فيلم لورنس اوف اريبيا، سيظهر لورانس، وهو يشارك العـــرب تمردهم ضد تركيا. لنزيح الفيلم جانبا. لأنه لم يكن يعني عســـاف مـــنه، حيـــن ذهب للسينما خصيصا كي يراه، غير تلك اللقطـــات، التي يظهر فيها انتوني كويني في دور عودة ابن تايه. فالغزوات التي قام بها، وضروب الشجاعة والبطولة، التي أبداها، يتناقلها رجال القبائل، ويروون وقائعها وأحداثها، إلى أولادهم.

تذكـــر عساف أمه، حين كان صغيرا، تحكي له كيف أمسك عـــودة ابـــن تايه بالحجر، وكسر أسنانه الصناعية، التي أهداها له التركـــي، حـــتى لا يأكل من طعام (سيدنا وقائد المؤمنين) بأسنان تركـــية؛ فأحكم ربط عمامته على رأسه، ثم تناول مفاتيح السيارة، من قدام مصلح، وتوجه إلى شجيرات السدر، المتناثرة في السهل. مـــن بعيد، وعلى أضواء كشافات المارادونا، رأى الخِرَق، ذوات الألوان الكابية، مربوطة على غصون الشجيرات.

يقـــول الكـــبار: كان رجلا صالحا يتكيء وحيدا على عصاه، فيما إبله تنداح في الوادي، تقتات من نبتات صغيرات، من المثنان والدوم والسدر والشيح يسقيهن الطل، حين أطل عليه الفتيان: أنت يـــا رجل. تعال هني. لم ينبس ببنت شفة، وقدم من لحظته. صفعه أولهم، ودفعه الثاني على وجهه، واستل الثالث سيفه.

وضـــع الفتى السيف على رقبة الرجل؛ فتجمدت يد الغلام في مكانها. تناول الفتى الثاني السيف، ودفع الأول بعيدا، فأبى السيف أن يـــتحرك على رقبة الرجل.. فصاح الفتى الثالث: اتركوه.. لا شأن لنا به، فالرجل، لابد، من أولياء الله الصالحين.

أنبه صاحباه على دروشته، فرفع الشيخ رأسه قائلا: يا وليدي إن كنتم تريدون الإبل؛ فخذوها ولا تذبحوني. وإن كنتم تريدون مالا، فلا مال عندي. وإن كنتم لا مناص ذابحيَّ، فسيفي هناك، ولكن.. رجاء: لا تمضوا، وتتركوا جثتي تنهشها الضواري.

اندفع الأول نحو الجهة التي أشار إليها الشيخ. وأتى بالسيف، وضع السيف على رقبته، وبحزة واحدة، فصل الرأس عن الجسد. حين اندفع الدم عاليا، من رقبة الرجل، التفت الفتيان نحو الإبل، فرأوها، وقد تحولت إلى شجيرات من السدر، بنفس حجم الإبل. الحوار سدرة صغيرة. والناقة سدرة أكبر مائلة نحو الامتلاء قليلا. الجمل سدرة أقل من الناقة في الحجم، وأميل قليلا نحو الطول.. زارها عساف مع أمه صغيرا، وأوصته بزيارتها، حينما علمت بنيته الخروج للصيد. سيجعل الله رزقك وافرا، وسيرضى عنك إن زرت الشيخ حميد. قالت.

* * *

مسد مسلم الهيب الربابة، وأسكنها كيسها الأبيض بهدوء، كان مسلم واحدا من كبراء قومه، قبل أن تكثر عليه الديون، ويعجز عن سدادها، فهداه تفكيره إلى أن يعود إلى حيث الموهبة، التي حبته بها السماء، فهو واحد، وفق ما يصف نفسه، من أحسن عازفي الربابة، في صحراء شرق السويس. بدأ يجوب هذه الفيافي، حيث يتمركز صائدو الصقور، الذين يقولون الشعر، بحثا عن واحد منهم يكتب له قولا في القذافي، يغنيه له على الربابة، عله يحصل على أعطية من العقيد، تعيد مجدا كان له. ماذا تتوقع

أن يعطـــيك العقـــيد يا شيخ مسلم؟ سأل عودة. يمكن العقيد يعطيه ســـيارة مرسيدس مثل اللي اعطاها لعوض المالكي. قال مصلح. وكـــيف ستدخل بها الأردن يا شيخ مسلم.. وأنت لا تقدر على دفع جمـــركها؟ ســـأل عـــودة. سأضع عليها لافتة كبيرة، وأكتب على اللافـــتة. الســـيارة هدية من العقيد القذافي، ليقول ملك الأردن في نفســـه: العقيد ليس أكثر كرما مني، ويوافق الهاشمي على إدخالها المملكة دون جمارك.

***

فـــي الليلة الثانية، أخذ عساف مفاتيح المارادونا، وانطلق بها. أنعشـــته الـــرائحة العطـــرية، التي تسللت إلى أنفه، من النباتات المتـــناثرة فـــي قاع المجرى، الذي يمتد، كأنه خط أسود متعرج، علـــى صـــفحة الخـــلاء المترامي بين يدي الجبل، وبان الحصى متـــناثرا على سفح الوادي، حين تساقطت عليه أشعة القمر. أوقف الســـيارة وهبط منها يتأمل المجرى: ليس واديا بل صدعا، تتجمع فـــي بطنه، المياه الآتية من جهات عدة، في هذه اللحظة، راودت عســـاف رغـــبة فـــي أن يمسك بحصاة، ويقذف بها عاليا وبعيدا، لتســـتقر فـــي قعر المجرى. ولكنه أسكت هذه الرغبة، حين رأى الســـنة اللهـــب تتهادى من بعيد، فيما مسلم الهيب يسخن الربابة، على زخم الحرارة، المتصاعدة من النار.

عـــاد عساف إلى السيارة، وقادها إلى حيث يرى النار. وضع مســـلم الهيـــب الربابة على وركيه، قبل أن يشير بيده، رادا على تحية المساء التي ألقاها عساف، ثم أشار عليه بالجلوس إلى جانبه.

صب الرجل، الذي لا يزال ملثما، في قعر الفنجان قليلاً من الشاي وشـطفه بـه، ثـم ملأه شايا ومده بيد مرتجفة نحو عساف، الذي اقـترب متناولا الفنجان، وهو يقول: عشت. أما مسلم الهيب؛ فقد مـد الربابة، بحيث صارت رقبتها فوق ساعده، واتكأ قعرها على زنـده، ثـم مسـد (بالمسن) أوتارها؛ فانطلق اللحن رائقا وشهيا، تنحنح قبل أن يغني:

عمي يا وطفان ما بي خلاف
وابكي صبي تدفق السمن يمناه
عمي يا وطفان ما بي خلاف
وابكي صبي يذعر الخيل طرياه
يا ونتي ونة ثلاث الهرافي
اللي جلود حيرانهم مبواه
يا ونتي ونة عجوز كبيرة
شافت ولدها سبق الخيل تنحاه
يا ونتي ونة شايب على الدار
والبدو شايل عنه وخلاه
يا ونتي ونة طير الخلا لو انطاح
والدم من كل الجوال يبراه

عند هذا الحد زام الرجل الملثم، فوقع اللثام عن وجهه، ارتفع قلب عساف وهبط عند رجليه، لمّا رأى وجه الرجل. ليلة مضت، وهـذه الثانـية. وعساف لم يتوقف لحظة واحدة، ليسأل نفسه، من هذا الرجل، الذي اتخذه مسلم الهيب رفيقا، في هذا الخلاء؟.

لـــم يكـــن الرجل غير (عليّ حيل) ذاته، ما الذي أخرجه إلى ســـطح الأرض، بعد أن راج خبر فقدانه من سنوات، البعض قال مات، والبعض قال ابتلعته وحوش البرية. من أي سماء وقع، ومن أي أرض نبت، بعد كل هذا الغياب.

كانـــت أرض (عليّ حيل) مقسمة إلى نصفين، النصف الأكبر مـــنهما شـــمال الحـــدود، والنصـــف الآخر جنوبها. ولكي تتضح الصـــورة سنرســـم مـــربعا. سنة **1906** سينقسم هذا المربع إلى نصـــفين، لنسميهما المربع **1** والمربع **2**، سيكون المربع **1** ملحقا بمصـــر، بينما يلحق المربع **2** بالشام. سنة **1948** سينقسم المربع **2** إلـــى قســـمين، لنسميهما **2a** و**2b**، الأول سيتبع إسرائيل، أما الثانـــي فسيكون تابعا لقطاع غزة. سينتج عن هذه الحالة أن يزرع علـــيّ حيل المربعين **1** و **2b**. سنة **1982** سُيمنع عليّ حيل عن المـــربع **2b**؛ فيأتـــي بسيارة محملة بالبراميل من فاقوس، يحفر- تحت الحدود- نفقا من البراميل، ويلجه كل صباح إلى أرضه في قطـــاع غـــزة، يـــرعاها ويعود في المساء إلى بيته، حتى غرقت دوريـــة الإســـرائيليين فـــي الـــنفق. على الفور وصل الخبر إلى الحكومة في مصر. في الليل اقتادوه، لا أحد يعرف إلى أين. علا صوت مسلم الهيب من جديد:

يا ونتي ون الظمايا على البير
وحيضان يبس وصفيهن تلظاه
بالله تجيبوا مفرشي واللحاف
وهاتوا هوية الزمل مشية مداناة.

صـــب ليـــنا شاي يا عليّ يا خوي. قال مسلم الهيب مخاطبا عليّ حيل، الذي أعاد لف اللثام على وجهه فغطى ما تحت عينيه.

ولكن.. قل لي يا عم عليّ.. غبت أيام طويلة، وين كنت؟ قال عساف.

قـــل لـــي.. تـــبع مـــن أنـــت يا صبي؟ رد عليّ حيل بقرف واستعلاء.

***

أي إهانة، أهينها عليّ حيل، جعلته يتيه في الصحراء، مخفيا الوجـــه الـــذي أهين، وراء اللثام، إلى أن يثأر أو يقع، في عرض الصـــحراء، ميتا تأكل جثته الضواري. في الليلة التي قبضوا عليه فيها، اقتادوه إلى دهليز تحت الأرض. كان الضابط لحظتها قابضا علـــى عـــرعور عليّ حيل. لماذا عرعوره.؟ لمزيد من الإذلال. العـــرعور يسميه المصريون القفا ويضفون عليه شرفا لا يقل عن الشرف الذي يضفيه جيرانهم على الأنف والوجه إن لم يكن أعلى.

مـــن أين للقفا كل هذا الشرف؟ قبل الإجابة، لابد من الإشارة إلـــى تلـــك المـــنطقة، التي يتقاطع عندها كل من البدوي والفلاح (المصـــريين). الأول يختار قمة كثيب، ويقيم فوقها خيمته، ويعلق عليها الراية البيضاء، ثم يشعل النار أمام الخيمة، بينما يأتي الثاني جـــوار جدول ويقيم عشته، وعلى حافة الجدول، يشرع في إنبات حياته (جرير.. بقدونس.. كزبرة.. الخ).

الأول مســـتعد لـــتقديم حياته ثمنا لحريته. بينما الثاني مستعد لتقديم حريته ثمنا لحياته. ومن هذه المنطقة، بالضبط، يتم اصطياد

الثانـــي..كيف؟ يتوالى الجباة، وتتصاعد الضرائب، والفلاح يقابل هذا التصاعد، بقدرة عجيبة على الصبر والانحناء، مادامت الجباية أقـل مـــن أو تســـاوي ما تنتجه الحياة، إلى أن يأتي جاب غبي، وتصـــير الجباية أكبر من الإنتاج، حينها يشعر الفلاح، أن الخطر يطال الحياة نفسها، عند هذه اللحظة بالضبط تشتعل جهنم.

الجـــنرالات من الجندرمة والمماليك، عند جبايتهم للضرائب، يرصـــونهم في صفوف، وكل من يدفع الضريبة يختم على باطن يده.. ولكن، ولأن الضرائب تجبى في موسم الحصاد، يعرق باطن اليد، فيسيح الحبر. ومن ثم يختلط الذي لم يُختم، لأنه لم يدفع بعد، بذلـــك الذي خُتم لأنه دفع. تفتق ذهن الجندرمة عن طريقة جديدة للخـــتم، أن يخـــتم الرجل على قفاه، ولأن ياقة الجلباب تحك الختم حـــتى تخفيه، فيختلط الحابل بالنابل، أصدر الجندرمة أمرهم الذي يقضي بأن يلبس الفلاح ثوبا لا ياقة له.

كانـــت دفعـــة الضـــابط قوية جدا، بحيث قذفت بعليّ حيل، المتعـــب والمـــنهك علـــى إثر التحقيق، مرميا على وجهه داخل الدهليز، حينها نادى الضابط ع المساجين: ده يا رجاله ضيف من ســـينا.. مـــن هناك من عند اليهود.. والنبي يا رجاله.. ما تنسوا تقدمـــوا لـــو الواجب.. ثم أطل بوجهه من وراء الباب الموارب: افـــتكروا، والنبي يا رجاله، القهوة.. القهوة مزبوط .. أصلو جاي مـــن عـــند (ثـــم وضـــع يديـــه حول فمه حتى صارتا كسماعات مـــيكروفونات الباعة الجائلين) اليهووود.. واللي جايين من هناك بيحبوها مزبوط.

في اليوم الثاني، وبعد أن شرب عليّ حيل، القهوة التي أوصى بها الضابط، اقتادوه من القبو، معصوب العينين ويداه مربوطتان وراء ظهره. قذفوه في صندوق سيارة، مع مساجين آخرين، وأقفلوا عليهم الصندوق.

أنزلوه من السيارة، وأدخلوه في قبو آخر، ارتمى مثل جرو في طرف القبو، جلس مفترشا البلاط ومتكئا بظهره إلى الحائط. مسح وجهه بيديه الاثنتين. اقترب منه أحدهم، رمى له ببطانية سوداء قذرة ليجلس عليها. استطاع أن يتبين بوضوح لهجة الرجل الذي أعطاه البطانية، ولكنه لم يستطع أن ينطق. جاء آخر بصفيحة نتنة بها ماء، صب على يديه، وطلب منه أن يغسل وجهه ويبل ريقه، ثم عزم عليه بسيكارة.

***

قفز عليّ حيل في الصباح مفزوعا، على طرقات عنيفة على الباب، كان رجلا ضخما يطرق الباب، وهو يصيح: كله يصحا. كله يفوق. كله انتباه. انتصب النائمون على صوت هذا الزلزال الصباحي، الذي هز أركان القبو، وقفوا، على طرف بطاطينهم المفروشة على البلاط، في صف على شكل مربع ناقص ضلعا. ولجت القبو أجساد ضخمة.. صاح واحد منهم: كل واحد يقول أسمه ثلاثي، والمحافظة اللي هو جاي منها.

بدأ المساجين في ذكر أسمائهم وبلداتهم. تداخلت حروف (س ل م) في آذان الضخام، الذين يطوفون بينهم ممسكين بالمطارق. قهقهوا: كله سالم.. سليم.. سلمان وحين انتهى المساجين، صرخ

أكـــبرهم رتـــبة: كلكـــوا من هناك.. كلكوا من سينا.. الله أكبر.. عظـــيمة يـــا مصـــر ياللي ما بتنسيش حقك أبداً.. دول اللي خدوا الســـلاح منـــنا فـــي سبعة وستين وباعوه لليهود.. ودلوقت اليهود بيحاربونا بيه.

III

لســـان توماس، مثل الجرس على مؤخرة البغلة، لا يكف عن الحـــركة. وبالـــرغم من كلامه الذي لا يتوقف، وهذه صفة من لا يكـــتمون سرا، فقد كنت أحس أن ثمة سرًا لفه توماس بعناية، قبل أن يدســـه في رأسه. يخرج أحيانا، يغيب أياما قبل أن يعود، ماذا يفعـــل حين يغيب.. وأين يغيب..؟ لا شك أنه يخبر عساف، ولكن بمـــاذا يخـــبره؟ ثـــم ما موقع توماس من رفاقه، الذين لا يتركون فرصـــة إلا ويرسمون النجمة الخماسية، على حجر أو في مصب وادي.

ولكـــي أعـــرف، ماذا يفعل توماس ورفاقه، استخدمت تكتيكا مصـــريا، عرفـــته حيـــن قـــرأت، واحدة من قصائد عبد الرحمن الأبـــنودي، التي وجدتها في جريدة مطبقه، وملقاة في غرفتي في المدينة الجامعية:

...

قعدت معاه

وشربت معاه الشاي

قول اديته سجارة

وجرجرته في القول

....

هيرد يقول ايه

ما انا بديلوه القول مقفول..

...

فشـــل هـــذا التكتيك، رغم أنني نفذت، خطوة خطوة، ما كتب الأبـــنودي، فاضطررت لاستخدام تكتيك آخر. كان توماس واقفا، يطـــبخ العـــدس ويوزع النكات، بينما عودة يُقطع العجين، لعساف الجالس جوار الصاج يخبز، وقفتُ جواره، وقلت إني أعرف خبر لـــو ســـاعدتني فـــي تســـويقه، لكسبنا الآف الدولارات. نظر إليّ توماس، سأل: وما هو الخبر؟

قلـــت: لقـــد كان جدي، هو دليل د. فاوست، وأخذ مبلغا من المـــال، كـــان هائلا بمقاييس تلك الأيام، نظير أن يكون دليله في العـــام الـــذي يلـــيه. ولأن فاوست لم يأت، وجدي، كما لابد أنك تعـــرف، نبيل من نبلاء الصحراء، فقد أورث أبي، الموضوع في صـــورة، وصية، مما جعل أبي يوصيني قبل أن يموت: خذنا مال من رجل اسمه التكتور فاوست، والمال (أمانة) يا وليدي يا ربيع، كلـــناه فـــي بطونا، قبل ما نشتغل الشغل اللي خذنا المال قباله، إن جـــاك اللـــي يســـعلك ويـــن دق الرجل الثابوت، أثراه مدقوق ف المطـــرح الفلانـــي.. إلـــى هنا ورأيت العصافير تتقافز من عيني تومـــاس، وهـــو يسأل: هل تعرف المكان بالضبط.؟ أي اعرفنه. رديت.

تومـــاس ورفاقـــه يقولـــون، أن لقـــاء د. فاوست الأول مع الشـــيطان، تم في مكان ما من سيناء عام **1927**. اتفق د. فاوست مـــع الشـــيطان، أن يلتقيا في العام التالي، إلا أن فاوست مات قبل

الميعاد بأيام. ولكنه، وقبل أن يموت، لم ينس أن يوصي رفاقه، أن يذهبوا ليقابلوا الشيطان، في نفس المكان.

لم يقدر رفاقه، على تحديد مكان اللقاء بالضبط، فتبرع توماس بالبحث عنه. لذا وما أن وصلنا المكان، الذي اخترته، حتى شرع توماس، في رسم النجمة الخماسية، ثم قاس **216** مترا من الجبل، وأجرى بعض العمليات الحسابية، ليتأكد أن الشمس تتقاطع عمودية على النجمة، ثم دهن ستة أوتاد باللون الأصفر. زرع واحدا منها في قلب النجمة، والخمس المتبقيات، على رؤوس أضلاعها، ثم عدنا إلى الكامب.

غبنا أسبوعا كاملا، كان توماس أثناءه يجلس ع الماسينجر بالساعات، قبل أن نعود، توماس ورفاقه وأنا دليلهم، إلى مكان الأوتاد. صعدت أراقبهم من فوق الجبل بالمنظار الليلي، وهو الوحيد من عدتي الذي ينتمي لعدة الصحراء. لم استطع أن أركب مارادونا، ولم أهتم بأن يكون عندي كلاشينكوف. فقد عرفت وظائفي التي لن أقدر على أداء غيرها: دليل سياح أو بائع متجول أو مدرس للتاريخ الذي تعده الحكومة ليدرسه الأولاد.

بدأوا صلاتهم، بإيقاد النيران في منتصف النجمة، ثم أشعل توماس عددا هائلا من الشموع، في اللحظة التي بدأ الكل في نزع ما يلبسه فوق السرة. أخذ توماس في ترتيل تمائم يستحضر بها الشيطان، بينما دخان الطرينة يصاعد، حان ميعاد الرقص. كانت الطرينة قد لعبت بالروؤس، فشبك الرفاق أيديهم، وصاروا يلفون

حول النجمة الخماسية، وهم يرقصون، إلى أن تمكن الإعياء منهم؛ فتساقطوا واحدا وراء الآخر.

ألحت عليّ صورة أبي كما لم تلح من قبل، كانت لحيته ترتجف، والعروق الزرقاء نافرة في يديه وهو يشوح: ما بتعرف رب ولا لك دين ولا ملة، ربك هن الدراهم ما غيرهن.. ما تغير لا علي عرض ولا علي أرض.. ثم يوجه الكلام لأمي التي انقضت تدافع عني: أثراه وده يسوي الغنايم.. كود منشانه لقى ع الجامعة، لا وحياة هاللحية.. غير المصرية اللي وده يجيني كتفها ع كتفه .. ولا شي.. هم هم هم هم .. يا ريتني بولته ف شجرة.

وبدلا من أن أعود كتفي ع كتف مصرية، وفق تعبير أبي، عدت بإجازة في التاريخ.. ظل أبي يسأل: ليش ما تشغلك الحكومة، يا ولد يا ربيع، والا ورقتك اللي جيت بهي نصابة؟.. ما هي نصابة، بس ما فيه وظايف ف مصر. مصر بطولها وعرظها ما فيها وظيفة لك. قال ساخرا ثم طبق شهادتي ووضعها في جيبه. يوم السوق كان واقفا أمام كشك، الرجل الذي يكتب العرائض، قدام قسم الشرطة، دلى يده بها من شباك الكشك: انت يا استاذ اقرا لي بالله هالورقة. نظر فيها كاتب العرائض وقال: هذي شهادة من جامعة القاهرة. واش بتقول هالشهادة؟. حاملها حاصل ع الليسانس في التاريخ. يعني الحكومة تشغل اللي هي معه والا ما تشغله؟. تشغله. سعيدا عاد أبي، ولكن ظل السؤال يقرع رأسه: ليش ما تشغله الحكومة؟.

شـــهور قضيتها ف النوم للضحى العالي، مما جعل أبي يبدو مثل جمل هائج، مفزوعا أصحو وهو يرفع اللحاف عني، ثم يدلق أبـــريق المـــاء على رأسي: لا تنام بعد طلعة الشمس أبد. في هذه الشهور صرت أمارس العادة السرية مرتين، وربما أكثر في اليوم الواحد، وصارت أمي متألمة جدا لبطالتي، وصراعي المتوالي مع أبـــي. قال خالي: لا تتعشمي في وظيفة. الحكومة بطلت توظف. وأيش يسوي ربيع يعني، يرعى البل؟ سألت ساخرة. بيعي غنمكي والذهـــب اللـــي ع برقعكـــي واشتري لولدكي سيارة. نفذت أمي نصـــيحة خالـــي؛ فاشـــترينا ســـيارة نصـــف نقـــل، من طراز تويوتـــا(حدثتك عنها)، صرتُ أملأ صندوقها بضاعة، وأذهب إلى حيـــث الـــناس الذيـــن اختاروا سفوح الوديان مسكنا. كان صباحا صيفيا ذلك الذي وصلت فيه وادي غرندل، بدأت الشمس تصّاعد؛ فاشـــتدت حرارة الضحى، أوقفت سيارتي عند جذع سدرة قديمة، بظهر يدي مسحتُ العرق الناز على جبهتي، ثم جلست على حافة صندوقها انتظر مشتريا.

حيـــن جـــاءت تخبىء وجهها خلف لثامها، اعتقدتها في البدء آتـــية لتستظل بالسدرة، فكرت: وجودي سيضايقها، ظنا منها أنني فـــلاح، وبذا لابد تنوي طردي، ابتسمت في سري. ولكني سرعان ما تراجعت. فانزاحت الابتسامة عن شفتيّ اليابستين. لحست شفتيّ بلســـاني. فكـــرتُ: لـــو ظنـــت بأني فلاح لما دست وجهها خلف لثامها.. فهي حتما لابد مشترية. علي الاستعداد إذا..

اقتربتْ البنت من السيارة، التي كنتُ قد غطيت كبوتها بقطعة من خيمة مهترئة، كي أقي مقدمتها حرارة الشمس، التي عجزت أغصان السدرة عن صدها. اتجهتْ نحو الصندوق، الذي لا زلت جالسا على حافته، أرقبها بطرف عيني ..ألقتْ عليّ السلام.. فرددته وأنا أرحب بها مثل أي بائع لعين، وذي نوايا .....

قلبتْ البضاعة، بينما كنتُ أرقبها في محاولات حثيثة كي استشف مبغاها من بضاعتي، توقفتْ طويلا عند المناديل، وصارتْ تقلبها وهي تسألني عن سعر كل واحد، ثم أمسكتْ بواحد منها تُقلبه، بعدها رفعتْ ذراعها به وهي تقول: وهذا بكم..؟

ما أن أخبرتها بثمنه حتى انقلبتْ، إلى حيث هبطت وهي تقول: في المرة الجاية ودي أشتريه منك.. أدركتُ أنها تريد المنديل ولكنها لا تملك ثمنه.. كدتُ أنادي عليها لتأخذه ولتأتيني بثمنه في المرة القادمة.. ولكني خفتُ أن يساء مقصدي..

بعدها غبتُ طويلا، عن ذلك الوادي، حتى نسيتُ تماما المنديل، ونسيتُ التي سألتني عنه. وحينما فكرتُ في العودة إليه، لم يكن قد جال في ذاكرتي، موضوع البنت ولا موضوع المنديل بعد. ولم أتذكره إلا حين رأيتها هابطة من نفس المنحدر ملفوفة في سوادها.

حدث ذلك بعد أكثر من عام، حين عدتُ بالصدفة لنفس الوادي. وما أن لمحتها حتى لمع المنديل في ذاكرتي. أعدتُ بسرعة ترتيب ما معي من مناديل، وأنا أبحثُ عن ذلك المنديل، الذي وضعتْ يدها عليه في السنة الفائتة، وحين وجدته نحيته

جانـــبا، ومـــا أن وصلتني، وقبل أن أشير لها على المنديل، حتى فاجأتنـــي قائلـــة: عرفـــت انـــك ودك تجي اليوم.. قلت لها: أيش عرفكـــي؟.. قالت: أنت ما تدري أن أم غرير مابتجي تتناقز غير وراها ضيف

* * *

كنـــتُ جالســـا حذاء الشاطىء، حين جاءني عودة هابطا من أعلى الجبل. ماذا تفعل؟.. أعد موجات البحر.. قلت، وانطلقت في جـــردة حســـاب، فأحسست باليتم، غاليت فلتت مني، وارتمت في حضـــن عودة، نصبتي على توماس، خرجت منها بعلبة سكاير لا غير، لم أنجح في العمل كبائع متجول، وساعي البريد لا يريد أن يأتي بجواب التعيين، حتى مسلم الهيب لم ينج من حماقاتي.. ولهذا قصة:

خالـــي الـــذي له وجه ذئب، حين تنظر إليه من ظهره، وهو ماش، تحس بأنه يضع قدمه ع الارض مثل غزال. لما بنى اليهود مســـتوطنة (ســـادوت)، في أرضنا التي رحلونا منها، كان عمره ثلاثة عشر عاما. عمل عند واحد من المستوطنين، كان المستوطن يهوديا عراقيا.

تـــرقى خالـــي في عمله. وحين صار كابلان (رئيس عمال) أعطـــاه مســـتخدمه العراقـــي التراكتور، يأتي صباحا بالعمال من المخيم، على مقطورته، ويردهم لبيوتهم في المساء؛ فاشترى خالي قطيعا من الغنم. وسار يأخذ أمه كل صباح. وحين يصل المشغل، يـــتجه العمال إلى عملهم وهو يقف وراءهم، بينما تذهب أمه إلى

الأشجار تحش ما تحتها. وحين تأتي الساعة الثالثة عصرا، تكون قد ملأت خمسة أكياس من العشب.

يُحمل أكياس العشب على المقطورة، ويُجلس أمه وباقي العمال فوقها. ثم يعبر الخلاء المحيط بالمستوطنة، متجها إلى بوابة الأسلاك الشائكة التي تطوقه. وعند البوابة ينزل العمال، ويواصل هو طريقة بأمه وأكياس الحشيش، إلى المخيم (كانت بيوت المخيم كلها أكشاك من الزينكو) يكون المساء قد حل. يضع العشب أمام الغنم، وتقوم أمه بعمل العشاء، أما هو فيكون قد (نمّر)، على مزرعة واحد من جيران مستخدمه، عمالها قطفوا البندورة ورصوها في كراتين، انتظارا لأخذها للسوق في صباح اليوم التالي.

يسطو عليها ويحملها ع التراكتور، تكون (فايقة) في انتظاره، ينزل الحمولة أمام دكانها، ويضع ثمنها في جيبه ويعود، يأكل اللقمة التي أعدتها أمه، ويعد فراشه وينام.

في هذه الأثناء، كان يتقدم لاختبار السواقة (كان يسوق التراكتور بدون رخصة)، دخل سبعة اختبارات ونجح في الدست الثامن (كان خالي والبدو كلهم يسمون الامتحان دست، والممتحِن دستر)، حين تجاوز الدستر عن (دست الكبريتة). يعطي الدستَر مقود سيارة النقل، المحملة بالحجارة، للمتقدم. وحين يكون في مطلع الطريق، يطلب منه التوقف، ثم يضع علبة الثقاب خلف أحدى عجلات السيارة الورانية، ويأمر الممتحِن بالمُضي. وفي

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

السبع دستات، التي دخلها خالي، كان يُحول علبة الثقاب إلى قطعة من الإسفلت.

ولما حصل على الرخصة، باع الغنم واشترى سيارة تندر(بيك اب) من طراز بيجو. في الرابعة صباحا يكون في العريش، يملأ صندوقها بنات ويذهب بهن إلى المستوطنة، ينزلهن ثلاث أو أربع، وأحيانا خمس، عند كل مزرعة، ويبقي على واحدة، يأخذها إلى أطلال دار شيخ القبيلة، في الخلاء المحيط بالمستوطنة(شيخ القبيلة كانت داره هي الوحيدة من الأسمنت بينما كل بيوتنا من الخيام). يقضي وإياها اليوم، وحين تشارف الساعة على الثالثة، يذهب للمستوطنة، يلم البنات ويعيدهن إلى بيوتهن.

ورغم أن خالي ترك العمل كابلانا واكتفى بالبنات، إلا انه لم يترك عادته في السطو على بندورة اليهود، فقط بدلا من تحميلها ع التراكتور صار يحملها في صندوق سيارته.

حين رحل اليهود من سيناء، جاء الحزب الوطني، فالتحق خالي على الفور به، وارتقى حتى صار أمينه في واحد من أهم مراكز سيناء (شمال سيناء، إذ قُسمت سيناء إلى أربعة أقسام، ألحقت ثلاثة منها بثلاث محافظات، بينما قسم الرابع إلى محافظتين). وحين انفرجت العلاقة بين الرئيس والعقيد، تبادل الحزب الوطني الزيارات مع اللجان الثورية، وكان خالي عضوا في أحد الوفود التي ذهبت هناك.

لما عاد خالي طلبني: اقرأ يا ولد يا ربيع.. وناولني أجندة، كان بها مئات من الكروت لشخصيات بارزة في اللجان الثورية..

سـرقت مـنها ثـلاث خمنت أنها أهم كروت في الأجندة. وحين أخبرني عساف، بأن مسلم الهيب، وجد القصيدة، التي يبحث عنها، وقـام بتلحينها، وسيذهب لليبيا قريبا ليغنيها للعقيد القذافي، ورغم أننـي كنت متأكدا من عدم جدوى الكروت التي بحوزتي، إلا أنني أعطيت مسلم كارتا منها.

***

اسـتيقظ توماس، جال المكان بعينيه، تناول كيس البلاستيك، وجـد الطريـنة أوشـكت على النفاد. قال عساف: دخنها، سآتي بغـيرها.. خذنـي معك. قال توماس وانتفض واقفا تاركا الكيس. مشـيا حذاء الشاطىء، تناولت غاليت الكيس. حطت الطرينة على ورقـة وأخـذت تنقـيها من البذرات العالقة بها.. لفيه في ورقة أوتومان.. قال عودة.. اخلطي الطرينة مع السيكارة.. أردف وهو يلقي إليها بعلبة السكاير.

كانـت غاليـت تجلـس شـبه عارية. النصف الفوقاني، من جسـدها، تغطيه بقميص، يتدلى إلى ما تحت سليبها. وتشده على كتفـيها بحبليـن صغيرين. تناولت دفتر الأوتومان وسلتت ورقة. سـحبت سـيكارة من العلبة، ومسحتها بلسانها ثم قدتها بظفرها. أمسـكت ورقة الأوتومان بين أصابعها، وبعثرت الطرينة. قالت: تكفي للف سيكارة وتزيد. رد عودة: قد يتأخرا (توماس وعساف) فاقسمي الطرينة على سيكارتين.

سـحبت التبغ من السيكارة، وخلطته على الطرينة، وفرجت سـاقيها وشـرعت تلـف، مستعينة بحجرها في التقاط الفتافيت،

أحكمت لف ورقة الأوتومان المحشوة، لحست طرفها ولصقتها ثم دلـتها في فمها. لملمت الفتافيت من حجرها وأعادتها للكيس، فقام عـودة وأشعل لها. تمددت على ظهرها وهي تنفث الدخان، خرج الدخان من فمها غزيرا.

أريد أن أتعرى. قالت. تعري. رد مظهرا عدم الاهتمام. كان مسـتعدا أن يقـدم أي شـيء يقدر عليه مقابل أن يراها عارية. انتصـبت واقفـة، سـلتت سليبها وألقته عند رجليها، ثم وبهدوء وضعت يديها تحت قميصها، أمسكته من أسفل ورفعته. كان عودة يراقـبها. تحسسـت نهديهـا تحت القميص، سلتت الكتافتين من ذراعيها، فسقط القميص فوق السليب. وقفت عارية، مسدت بطنها وظهرها ومؤخرتها وفخذيها، تناولت السليب والقميص ووضعتهما علـى المخـدة. كان عودة ينظر إليها وهي مستلقية على ظهرها، واضعة ساقا على ساق تنفث الدخان.

* * *

حيـن تقربت منه زُهرة (كان ذلك في الفترة القصيرة قبل أن يقرر ترك الجامعة نهائيا) تسمر لسانه، ورغم المجهود الذي بذله، لـم يسـتطع مداراة الرجفة التي ألمت به. ظن أنها العلاقة الأكثر قربا له مع امرأة.

كـان أقصـى ما رآه من امرأة، حتى إن كانت أمه أو واحدة مـن أخواته، وجهها لا أكثر، أما الأخريات، فلن يرى منهن سوى عـيون، ولـن ينظر فيها طويلا، وسيبدأ الكلام بعد أن يشيح كل منهما بوجهه.

في ذلك اليوم ترك زُهرة وعاد إلى حجرته، تمدد على ظهره في السرير، يشحذ نفسه، ويستجلب عبارات عساف المشجعة (ذلك حينما أخذ نصيبه من ثمن الصقر وذهبا إلى المدينة واشتريا اللباس الجديد....

***

من فضلك لا تستعجل.. سأعود سريعا للقوس الذي تركته مفتوحا، ولكن بعد أن أحكي قليلا عن عساف: بعد **40** يوما، وحين شُفيت البنت المجنونة، خيرها الفقير أن تبقى معه أو تذهب لأهلها. اختارت البقاء عنده، لكنها اشترطت أن يكون وجودها ذا صفة..

- خلكي.. إن كان هواك أختيه..
- إن قلت أختك.. ما آني أختك ..
- خلكي إن كان هواك بنتيه ..
- إن قلت بنتك.. ما آني بنتك ..
- خلكي.. إن كان هواك أميه ..
- إن قلت أمك.. ما آني أمك ..
- خلكي.. إن كان هواك مرتيه ..

تزوجها.. وفي سنة المَحلة، تلك سنة لم ترشق السماء فيها قطرة مطر واحدة فوق الأرض، ولدتْ عساف. وبحسبة سريعة أستطيع أن أخمن أنها سنة **61**. لكن أبوه المثقل بالأولاد والنساء، أعطى أمه غنما وسرحها. في يونيو **1967** احتل اليهود سيناء. وطالبوا الناس بأن يسجلوا أنفسهم وأبناءهم، حتى يعطوهم تموينا.

فذهبت أمه لشيخ القبيلة وسجلت نفسها. بعد أيام ناولها الشيخ هوية وثلاث شهادات ميلاد، الشهادة الأولى لعساف والأخريين بأسميَ بنتين وهميتين. حتى تاخذي تومين كثير. قال وهو ينوي الاستيلاء على أكثر من نصف التموين.. ولكي يضبط الحسبة بين عساف والبنتين اعتبره مولودا في سنة **62** بينما البنتين في **64** و**66**.

كان عساف على الجمل مصدرًا من البئر، رأى الطلاب يلعبون الكرة قُدام المدرسة (في تلك السنين لم تكن المدارس تطوّق بالحيشان) لف الرسن على رقبة الجمل وتركه يعود إلى البيت. انحدر للأولاد يلعب معهم، ولأن أول الرقص حنجلة، سرعان ما سنجده جالسا في الفصل يتلقى العلم، ونظرا لعامل السن وعوامل أخرى، تَفوق عساف على زملائه، في الرياضات البدنية وفي التحصيل. ترك المدرسة، وعمل في مزرعة لإنتاج البيض، غادرها سريعا، واشتغل في كافتيريا، قدام معسكر للمدرعات. تركها، رغم أنه لا يزال، حتى هذه اللحظة، يعتبرها من أجمل أيام حياته، وعمل في غسيل الأطباق، في واحد من أوتيلات بيتاح تيكفا. كل هذا وسنة **82** تزحف مقبلة (اتفق الإسرائيليون مع المصريين على نيسان **82** موعدا لرحيلهم عن سيناء) والكل يواصل الليل بالنهار، لكي يوفر أكبر مبلغ من المال، يستقبل ما ستأتي به. كان مستخدمه في ذلك الأوتيل يقول: مصر ما فيها شغل، خليك هون. سنعود إلى أرضنا، التي رحلتونا عنها. يرد عساف، الذي يرى في الرجل كهينا، يبغي دق إسفينا بينه وبين وطنه. عاد عساف، إلى الأرض التي رحله عنها

الـيهود، وصـــار يشعل النار أمام خيمته، التي نصبها وسطها، لا ليســتقبل الضــيوف، كما كان جده يفعل، وإنما ليفكر في شيئين: الرشــوة التــي ســيدفعها للصــول المكلف بحراسة معبد ياميت والطريقة التي سيسطو بها على مواسير المعبد وبلاطه.

وقــبل أن يأتــي عساف، تماما، على المعبد، جاء مصلح من إســرائيل يــريد الصيد. لمّا اصطادوا الصقر تقاسموا ثمنه. عودة ذهب إلى الجامعة، ومصلح عاد إلى إسرائيل، أما عساف فأشترى خــزانا ســعة **8** م مكعــب، وضعه على مكان عالي، ثم مد منه خــرطوما **2** أنش طوله **3** كم، وفي آخره زرع زرعته. دونمين فججهمــا وكأنه يزرع بندورة، وضع في الأفجاج زبل الدجاج، ثم غطــاه بطبقة رفيعة من التراب، مد فوقها شبكة خراطيم التنقيط، وتحــت الخراطيم وضع بذور الطرينة. اتفق مع سائق سيارة نقل، مــزودة بفــنطاس مياه، أن يملأ الخزان كل يومين، والحساب في آخــر الموســم. بعــد شــهر صار طولها حوالي **30** سم. مرت الطائــرة، التقطــت صورة للمزرعة وأرسلتها إلى مكتب مكافحة المخــدرات بالسويس. جاءوا. دلقوا فوقها البنزين ثم أشعلوا فيها الــنار. أمــا عساف، الذي صار مفلسا تماما، فقد فلت بأعجوبة. ذهــب إلــى نويــبع، عمل طاهيا لفترة، قبل أن يُقيم الكامب على شــاطىء رأس الشــيطان، ولكنه أبدًا لن يكف عن الدوران حول الطرينة.

* * *

الآن سأعود للقوس الذي تركته مفتوحا.. ذهب عودة للجامعة، كان عساف يردد عند أذنه: لزوم البنات، وحين لبس اللباس الجديد، تقافز عساف بجواره فرحا مثل ظبي، وهو يردد: أنت شيك، زي ممثل هندي.)

في البدء رآها، كانت زُهرة تشارك في مظاهرات الجامعة، تعلق الصور التي تساند موقف المظاهرة، وكان سئما، يتجول وحيدا، يحاول التعرف على أجواء الجامعة، أعجبته فكرة المظاهرات، وأعجبته هذه البنت التي لا تعتني بماكياجها، ذكرته بمائلات العصائب، اللواتي تذكرهن أمه دوما عند رؤوس أخواته البنات حين يقمن بفعل لا يعجبها. فتنادي: لا تظحكن علينا مايلات العصايب.

يتخيل مائلات العصائب نساء جادات لا يعجبهن الحال المايل، سمع أحدى الإذاعات الفلسطينية، التي تبث من دمشق، تنادي مايلات العصايب بإكبار، وزُهرة رآها تعلق الصور التي تعضد معارضتها للذي تراه حالا مائلا، ولكن السؤال، الذي بدأ يقرع رأسه، ما الذي دفع زُهرة لتقترب منه؟

هل كانت فقط مجرد داعية لأفكارها..؟ شك في ذلك فرغم أنها ناولته الصور نفسها المعلقة على الحبل، الذي يطوق الأولاد والبنات الهاتفين، ولكن نظرتها إليه وهي تناوله المنشور، تقول لم يكن إعطاؤه المنشور هدفها الوحيد. انسل من السرير وذهب إلى الحمام، وضع رأسه تحت الحنفية، وفرق شعره من مؤخرة رأسه،

ومسـحه بـيديه فغطـى وجهـه بأكمله، نفضه وانسحب يجوب الشوارع.

***

بـدأ جرحـي يندمل ببطء، بعد أن ظللت لأيام أُكثر من إلقاء نفسي في الماء، لأداوي حالة السَعَر التي أصابتني بسبب فقدي لـ غاليتي! لمعت صورة أبي في رأسي مثل غماز سيارة، كان جدي يضـحك حـتى يرتمـي علـى ظهـره، حين يقول الطفل: قايد الجـريش.. وش ودك تسـير لمـا تكبر يا سليمان؟ قايد أيش يا سليمان؟.. الجريش. الجريش.. ولكن أي جيش هذا الذي تريد أن تكـون قـائده يا أبي. يشتري لك جدي متر العبك من بئر السبع، فتُخـيطه لـك جدتي ثوبا، تلبسه حتى يأتي العام الذي يليه. وكيف بتغسـله؟. بتجرد ع البير واغسله والبسه ع طول. قبل ما ينشف؟ بينشف وانا لابسه.

ولمّا بتتبرد؟. باتبرد والثوب علي. وأيش بتلبس تحته يا بياه؟ ولا شـي الحمـيد المجـيد. وف رجلاك؟ حافي. وعلى رأسك؟ عقدتـي. ولـيش مـا ظل جدي ف بير السبع لما خذوها اليهود؟ وعماتك، يومن نبعد عن ربعنا، عليمن نجوزهن ينتشوهن من بين ايدانا الهبوش، يا وليدي الرجل ما له غير ربعه.

ربمـا كان عمره ست سنوات، حين استيقظ من النوم ليخبر أبـاه: يـا يـباه حلمـت لو أن غنمنا كلهن ميتات. وش بتقول يا سـليمان؟. يومها دفن جدي الشعير، بعد أن فصله عن تبنه، وهبط

هـــو وجدتـــي وعماتي من بئر السبع إلى أسدود، يعيشوا وغنمهم فصل الصيف. وفي الطريق عرفوا أن اليهود استولوا عليها.

ارتـــدوا عائدين، وحين وصلوا، وجدوا اليهود على مشارف بـــئر السبع. كان جزء كبير من الغنم قد هلك، والتبن وبيت الشعَر محترقيـــن، أمـــا الشعير فقد سُطي عليه. قاد جدي باقي الغنم إلى ســـوق بـــئر الســـبع، وضع ثمنها في جيبه. في الطريق قابله من قابله، وفعل معه ما فعل (فقد مات جدي وسره مدفون في صدره) ثم استولى على ما معه من مال.

وضـــع أولاده فوق الناقة، وجرجر امرأته هابطا إلى ربعه، هـــناك فـــي سيناء له قطعة أرض، يرتهنها واحد من أقربائه. قال أخـــوه (جـــدي بـــركات): بع الناقة يا حسن يا خوي.. وفك رهن بـــلادك.. وعلى أيش أورد؟ خذ حمارتي أنت أورد يوم وأنا يوم. كـــان العـــرض مغريا، لكنه رفض أن يراه الناس يرد البئر على حمارة.

أخـــذ أبـــي وعمي، في الطريق، جرى أبي حافيا ع الحمادة يلاعب الحصى، ابتسم جدي: لا ما أنت تلفان يا وليدي يا سليمان. وحين وصلا، بعد أن مشيا أكثر من ميتين كم، مضارب ثري من أثرياء الصحراء، سأله أن يشغلهما عنده.

صـــار عمي يرعى غنم الرجل، بينما يقوم أبي بجلب الماء. ولأن الكـــبار لا ينادونه بغير الراعي انحاز للأطفال لأنهم ينادونه ســـليمان. أما معارك نساء الشيخ فقد حيد نفسه منها. حين يصير علـــى مشارف المضارب، مُصدَرًا من البئر، يترجل ثم يلف رسن

الجمل على رقبته، ويئزه ليواصل دربه. ويظل يتلكأ، مدعيا ملاعبة الحصى، إلى أن يصل الجمل، وتنفض معركة المرأتين على الجرار.

أما جدي بركات فقد ظل يقلّب الأرض بين المرتهنين. كيف؟ الرهن في هذه الحالة هو تسليف أحدهم مبلغا من المال لمدة معينة، وأخذ أرضه رهنا. وحين تنتهي المدة، دون أن يسدد المديون ما عليه، يأخذ الدائن الأرض.. كان جدي بركات كلما اقتربت المدة، وأوشك الدائن على لطش الأرض، يبحث عن دائن جديد، يأخذ منه مالاً يسدد به الأول، يسترد الأرض ويسلمها للجديد... وهكذا في عملية لا تنتهي حتى تبدأ.. ولكن على ماذا يراهن؟.. على الوقت.. هو هنا رمى طوبة أخيه، جدي حسن، وراهن على الطفلين(أبي وعمي).. (حتى يلقى اولاد أخوي مسكن لمّا يكبروا) كان يردد.

الآن وبعد كل هذه السنين، أجد نفسي رائفا بحال جدي بركات، المسكين يبذل مجهودا خارقا وهو يراهن على المجهول، مثلا: لو لم يفتح الله باب تهريب الرواظي (جمع **radio**) من قطاع غزة إلى مصر في الستينيات، ولو لم يكن أبي واحد من أشطر المهربين في تلك الحقبة، لما قدر جدي بركات أبداً على فك بلاد أبنيّ أخيه.

أقام أبي خيمته فوق أرضه، وظل يضع أخوي ذياب فوق كتفيه، وينظر من وراء الأسلاك الشائكة. ويهمس له، وهو يشير إلى الجنود الإسرائيليين الواقفين وراء الأسلاك وهم يضعون

أيديهم حول خصورهم، هناك بعد عشرين كم أرضنا. فأنقضُ عليه، والغيرة تملأ قلبي من علاقته بذياب، أي أرض هذه التي تخبر ولدك بها، أهي أرضنا في بئر السبع، التي استولى عليها اليهود عام **48**، أم سابقتها، أرض القرارة في خان يونس، التي استولت عليها قبيلة الترابين. وهلك نصف قبيلتنا في المعارك المتوالية التي خاضتها. ولم نستردها حتى يومك هذا، الذي (.....) فيه ولدك فوق كتفيك.

بعدها بأكثر من عشر سنوات، حين عاد ذياب من جامعة القاهرة، وذقنه تصل إلى نصف صدره، كان أول شيء فعله أن حرم على أمه زيارة قبور أولياء الله الصالحين، وامتنع عن أكل ما يذبح الكافر أبي. اشترى أبي كيس دقيق وجاء به محمولا على مقطورة التراكتور، أنزل الكيس ونادى: ذياب يا وليدي هات الشبرية. وبكل طاعة الدنيا جاء ذياب والمدية تلمع في يده. تناولها أبي، وحز الحبل القابض على فوهة الكيس، وهو يردد: بسم الله .. الله اكبر. ثم أضاف: ذبحته لا تاكل منه يا ذياب.

***

كان عساف يعدو حافياً، فوق الإسفلت، نحو الماسورة التي تقل اللافتة. والضبع يلف حوله في دوائر ما تنفك تضيّق. وحين أوشك أن يتناوله كان عند الماسورة. حضن الماسورة بعضديه، وصار يزحف إلى أعلى، مستعينا بوركيه. والضبع يتراجع إلى الوراء. انطلق الضبع إلى الماسورة، رفع رجليه الأماميتين عليها؛ فكادت مخالبه أن تطال قدم عساف. وبينما عساف يشد رجليه

عالـيا ويـنظر مذعورا للضبع، استيقظت من نومي. قعدتُ وأنا أتحسس رقبتي. كان ريقي جافا. لامست التراب بيديّ، ثم رفعتهما إلـى أعلـى. وجدت السماء في مكانها. كنت ظننتها انطبقت على الأرض. ناديـت عسـاف، فانتصـب واقفا في منامه. إذا أيقظت عسـاف في النهار فأنه يفتح واحدة فقط من عينيه. أما أن أيقظته لـيلا؛ فقبل أن أنطق حرف الفاء، يكون عساف، ببطنه التي تكاد تلتصـق فـي ظهره، منتصبا مثل الرمح، وهو يسأل: وش فيه؟ اسقني. رديت.

جاء عساف بالإبريق. وحين جلس بجواري، أشعل سيكارتين ناولنـي واحدة، وهو يعب من الثانية. حكيت له الحلم الذي رأيته. وضع رأس سيكارته في التراب، ثم توسد ذراعه وتمدد في مكانه. رُحـت أتمشـى، بين منحنيات الجبل، حول الكامب. كان عساف يقـول: أكـثر من **30** سنة يا ربيع، ما شفت فيهن يوم واحد من غير إهانة. تقول إهانة. من الذي يهينك؟ سألت منزعجا. كل شيء حولـي مهينا. أجاب. مشكلتك بداخلك يا عساف. قلت وقد فهمت ماذا يعني. تخيل شخص، على المحطة، ينتظر القطار. قلت وبعد لحظة صمت أضفتُ: يلبس بنطلون وقميص ويذرع المحطة جيئة وذهابـا ويـداه في جيوبه، يصفر أحيانا، ليطفىء من القلق الذي يشـتعل بداخلـه. حين يأتي القطار، سيبحث الرجل عن مكان ع المواسـير، التـي تربط بين أي عربتين، وحين يجده يتشعلق به. سـيظل الرجل في حالة صراع مع أجزاء جسده، حتى لا يقع بين القضـبان، فيسحقه القطار. لو كنت مكانه، سأفكر كيف أُغير من

طـــريقة سفري، لأحصل على موضع قدم في الدرجة الثالثة. أما أنت يا عساف، فإنك ستفكر كيف تغير من سفرك بالقطار لتركب طائـــرة! مشـــكلتك أنـــك تجرب بطريقة نظرية، ومع نفسك، مما يفضـــي بـــك لأن تلقى نفسك متحوصلا في النظري. وهكذا يظل تـــورم الـــنظري في اضطراد بينما العملي يتقلص. قُل كلمتك يا عســـاف، ففـــي كـــل مرة تقولها تعرضها للشمس؛ وفي كل مرة ستضيف إليها وتحذف منها، وحين تنضج ستجد من يسمعها. كنتُ أتكلـــم بيـــنما عســـاف ينظر إليّ صامتا. قلتُ: إنني أشعر بنفس الإهانـــة التـــي تشعر بها. ثم أضفتُ: أتريد أن تعرف كيف أداوي إحساســـي بالحقـــارة؟. بالغـــناء. أغني مع سعدون جابر: بوي يا محمد.. يا محمد ما ظل ضيم وما شفته.

***

في اليوم الثاني، كان عودة واقفا، يتفرج على الصور المعلقة علـــى الحـــبل، الـــذي يطوق الأولاد والبنات، كانت هي نفسها، الصـــور التـــي أعطته إياها زُهرة أمس، وضع واحد من الأولاد، المطوقيـــن بالحـــبل، الشريط في المسجل؛ فأنطلق الصوت عاليا: قلوبـــنا إليك ترحل كل يوم.. يا قدسُ.. في هذه اللحظة كان عودة عائمـــا فـــوق موج من الصور. الصور التي أمامه والصور التي تفـــور فـــي ذاكرته. صور.. صور.. صور.. صار العالم صور، مذابـــح صـــابرا وشاتيلا.. مدرسة بحر البقر.. صور لجمال عبد الناصـــر مـــرة لابســـا قميص وأخرى بذلة. مرة بنظارة شمسية وأخرى واضعا منظارا على عينيه.. جاءت زُهرة: صباح الخير.

صباح النور. رد. شُفت بيعملوا فينا إيه. قالت بطفولية. شفت. رد وغاب في شريط صوره. كان طفلا حين أمسكه الجندي الإسرائيلي من كتفيه، وأنزله من فوق جناح التراكتور.. قبّلهُ في جبهته وأعاده إلى مكانه. ظلت أمه تردد مفاخرة: حب وليدي.. اليهودي، والله العظيم، نزل عودة من ع الترك وحبه.

طوف لدقائق، ثم قال لزُهرة -كاذبا- بأنه ملزم بالذهاب للمدرج لاستدراك المحاضرة. اذهب وتعال بعد المحاضرة.. قالت. ضايقه قولها، فهذه المرأة لا تريد منه سوى التواجد في المعرض، لإكثار عدد المتظاهرين. عدد. فكرة العدد في ذهنه مرتبطة بالديوان، يذهب لشيخ القبيلة فيجلس مثل غيره (عدد) وكأنه بكرج للقهوة أو فنجان لشربها أو صينية أو الكانون الذي تشعل فيه النار.

لم يكن ذاهبا للمحاضرة، فتواجده في المدرج يشعره بالغربة، ليس لأنه أجبر على دراسة الفلسفة، فهي واحدة من مقاديره، ولكن إحساسه بأنه فاشل ضايقه، وجعله يدور حول نفسه، كأنه ذبابة حشرت في كوباية، وأخيرا قرر الذهاب إلى المكتبة.

الوجوه التي رآها جعلته يتساءل أية صدفة دفعته بينها، تذكر تلك المتوالية من الصدف التي صنعت بطل رواية قرأها، وبدأ يصنع لنفسه متوالية صدف موازية: صدفة كانت أمه حاملا حينما مات أبوه، وصدفة خرج ذكرا وراء ثلاث بنات أتين في أعقاب بعضهن كأنهن طلقات كلاشينكوف، وصدفة دخل المدرسة، وصدفة أتمها دونا عن الكثير من أولاد البدو، وصدفة أتى مصلح

مـــن إسرائيل ليقترح عليهما (هو وعساف) أن يذهبوا لرحلة صيد صـــقرية، وصدفة أمسك عساف بالصقر ولم يكن- هو ومصلح- متواجديـــن معـــه فـــي تلـــك اللحظة، ثم باع الصقر وقبض ثمنه وأعطـــى كل واحد منهما نصيبه، ليتواجد الآن في جامعة القاهرة، ولكن أكثر الصدف غرابة هي صدفة دخوله قسم الفلسفة.

كان ينوي دراسة الأدب الإنكليزي، ولأنه وصل متأخرا عن بـــدء الدراســـة بشـــهر علـــى الأقل، وجد أوراقه، مثل كل أولئك المتأخريـــن، مدفوعا بها إلى قسم الفلسفة لعدم الإقبال عليه. تقبل الأمر رغم ضيقه، فقد كان يتمنى أن يختار تخصصه بنفسه، حتى وإن كان هذا التخصص الفلسفة.

بـــدأ يتخـــيل متوالية صدف أتت بهذه الوجوه، التي تمر أمام عينيه مسرعة، ثم بدأ يعقد مقارنة بين متوالية صدفه، وبين صدف هـــذه الوجـــوه التي تخيلها كالآتي: ذات ليلة اختلف زوج فيها مع زوجته فزعقت فيه، كان صباح هذه الليلة بالضبط سيكون صباح امـــتحان البنت/الولد في الثانوية العامة، انعكست هذه الربكة على نفســـية الولـــد/البنت فلم يستطع أن يحل جيدا في الامتحان، ليجد أوراقـــه تنزاح من كلية الطب/الهندسة إلى كلية الآداب.... قبل أن يكمل المتوالية ناولته موظفة المكتبة الكتاب الذي سألها عنه، أخذه وذهـــب إلـــى طاولـــة القراءة، أعجبه الكتاب لكنه قلّب نظره بين الأكتاف الشبه عارية للبنات اللواتي يحطن به، شعر بغربة، ضجر مـــن المكـــان وسكونه، طوى الكتاب، واتجه إلى موظفة المكتبة،

أخـــرج كارنـــيه الاستعارة، وضعه على الطاولة، سجلت الموظفة اسمه، وأعادت له الكارنيه والكتاب. تناولهما واندار خارجا.

حيـــن أخذ قلبه ينبض، كان هابطا درج المكتبة، سمع صوتا يـــنادي اسمه، التفت إلى الصوت، زُهرة قادمة معها حزمة ورق، قـــال لنفســـه: ستعطيني ورقا جديدا، علّ هذا النوع الجديد ينجح، فيما لم ينجح فيه ورق أمس.

ســـلّم علـــيها. سألت: لم تذهب للمحاضرة. رد: حين وصلتُ كـــان المحاضـــر قد دخل والمدرج مقفلا. ذهبتُ للمكتبة لاستعارة هـــذا الكـــتاب. لا يـــزال قلبه يخفق سريعا، يحاول بكل جهده أن يسيطر على نبضه، جاء حميد، عرفه عليها وعرفها عليه(كان يثق فـــي حمـــيد ويحبه). وقع الأقدام على الدرج بدأ يضايقهم، اتجهت زُهـــرة نحو الدرابزين الحجري واتكأت عليه.. مشيا وراءها، اتكأ عـــودة علـــى الدرابزين بينما ظل حميد واقفا. كان حميد يحدثها، صار عودة أقل قلقا.

قـــال لها، حين تأكد أنها لا تريد أن تعطيه ورقا جديدا: بدل الوقـــوف على هذا الدرابزين، اسمحوا لي أن أعزمكم على شاي. تمنعـــت زُهـــرة ووافـــق حميد، فصارا اثنين، هو وحميد ضدها. فأردف ضاحكا: عربون صداقة. أحس بأن كلمة (عربون صداقة) أدهشـــتها.. كثـــيرا ما ينجح في بعض المواقف بكلمة واحدة، قد يكون سمعها أو قرأها، المهم تخلصه من غربته. افترق هو وحميد عن زُهرة، لم يذهب لسريره في المدينة الجامعية، عزمه حميد في

شـــقته.. لبى .. كان يحتاج لصديق، في المدينة الجامعية لم ينجح في خلقه.

وصـــلا الشـــقة.. وضع حميد أشياءه، كتب وشريط كاسيت، على طاولة خشبيّة تتوسط صالة ينفتح عليها باب الشقة الخارجي، فـــتح الـــثلاجة، ثـــم ذهب إلى المطبخ، غاب قليلا ليعود بأطباق، رصـــها علـــى الطاولة، بدءا يأكلان. رن جرس الشقة، فتح حميد الـــباب، دخلت امرأة. تكلما بصوت خافت، قامت المرأة وأمسكت التليفون.

أزاح حمـــيد الأطـــباق، وأعادها إلى المطبخ، جاء بكؤوس، فتحـــت المـــرأة الثلاجة، أخرجت زجاجة، صبت منها جرعات، ناولت كل واحد كأسا واحتفظت لنفسها بالثالث.

شـــعر عـــودة بالمـــرارة حين ارتشف الرشفة الأولى، هذا يا حميد..(قال عودة.. وخجل أن يكمل. نظر حميد نحوه ضاحكا ولم يجـــب، التفت ناحية المرأة ونظر في ساعته.. ثم قال: تأخر الناس يا عدلات.. وماذا أفعل يا حميد كلمتهم ع التليفون، قدامك، وقالوا أنهـــم جاييـــن.. ثم غمزت بعينها وهي تردف: وبعدين أنت مالك مستعجل كدا ليه..

نحى عودة الكأس جانبا .. لماذا لم تكمله..؟.. قال حميد.. لا أحـــتمل مرارته. رن جرس الباب. دخلت فتاتان. ارتمت أحداهما على الكرسي غانجة، توجهت الثانية نحو الكاسيت المفتوح، وعلت الموســـيقى، ثـــم انثنـــت نحو صاحبتها، وزغدتها وهي تقول: ما تقومي ترقصي ياماما..!!

ننـــتقل إلى الصالون. قال حميد. سحبت البنت فيشة الكاسيت وتبعـــتهم، جلســـوا. توجهت نحو صاحبتها، التي جلست غانجة، وقرصـــتها فـــي كتفها العاري: ما تقومي ترقصي. قالت عدلات للبنت التي لم تقم: ما تقومي ترقصي يابت.. ثم نظرت إلى الثانية وقالت: حزميها يابت.

قامـــت وهـــزت مؤخرتها، هزات خفيفة وبطيئة. ثم ضبطت المـــنديل، الملفـــوف حول مؤخرتها، وانطلقت في فاصل رقص، أنهته عدلات زاعقة بأن يدخلن الحمام ليغتسلن، وتختار لها واحد: تاخده وتخش في واحدة من الأوض.

خرجـــت الفـــتاتان من الحمام، اختار حميد الفتاة التي كانت تـــرقص، وأخـــذ عودة البنت الثانية. طلب منها أن تتعرى، كانت لديـــه رغبة عارمة، أن يرى جسدا أنثويا. تمدد على السرير، فك حـــزام بـــنطلونه وأنزل الجرار، يمسد عضوه تحت السليب، كان منتصبا، والبنت واقفة أمام المرآة، تخلع أرديتها قطعة قطعة، فكت أزرار القميص، ثم سحبته من ذراعيها، وعلقته فوق باب الخزانة المفـــتوح، وقفـــت بالجيـــب والســـونتيان، نظرت في المرآة على جســـدها، فكت السونتيان وخلعت الجيب، ووقفت تتحسس نهديها وترقبهما جيدا في المرآة.

انقلبـــت عارية، تمددت جواره: اقلع هدومك.. طلع عضوه، فارتمـــت فوقـــه.. خلع الفانلة وترك نصفه العلوي عاريا، مسدت بـــيدها علـــى الشعيرات النابتة في صدره، قلع البنطلون. أراد أن

يدخـــل عضـــوه بين فخذيها.. قالت اقلع السليب أو خليه في رجل واحدة.. قلع السليب واستلقى فوقها.. غطيني. قالت.

لـــم يكـــن مستمتعا بهذا اللقاء، ولكنه أراد التجربة، قام فورا، حـــدث ذلـــك فـــي أقـــل من ثلاث دقائق. سحبت منديلا ومسحت عضـــوه.. عشان الملاية متتوسخش.. عاوز تاني.. كان ضجرا، لكـــنه لـــم يكـــن يصـــدق أن هذه التجربة العاتية في خياله، التي سيطرت عليه لسنين، ستنهي بهذه السرعة، فأراد أن يبقيها.. نظر بين فخذيها، كان فرجها لزجا ومقززا.. قام وغسل عضوه. ارتدى ملابسه، وخرج إلى الصالون.

***

كانت غاليت أمام اللوحة المرفوعة، على عمودين من خشب النخـــيل، صـــنعهما عســـاف، تقعد عارية على ركبتيها، وقدماها منتصـــبتان علـــى رءوس أصابعهن. بينما عودة متمدد على بطنه يـــنظر إليها، كان صدرها ناحية اللوحة وظهرها نحوه، يتفحصها من باطن قدميها، كعبيها، ساقيها فوركيها ومؤخرتها، ثم ظهرها، شـــعرها ولمعـــان السلسة الذهبية، المختبئة بين ثنيات عنقها، كلما حركت رأسها وهي تصفر.

نظـــر إلـــى مؤخرتها، رغب أن يمسد أصابعه عليها، كان لا يـــزال متمددا على بطنه، قام وتوجه نحوها، وقف جوارها، كان ســـاقه يكاد يلامس وركها، نظر للوحة التي ترشق عليها الألوان. بـــن ســـالمان. أبعد اللوحة. ثم انثنت على ظهرها: وين الطرينة. سألت. مكان ما خليتيها. رد. أعادت صدرها إلى الأمام، وجلست

علـــى ركبتـــيها، كانت مؤخرتها فوق كعبي قدميها. نظرت إليه، ودون أن تنـــبس ببنت شفة، توجهت نحو الفراش الموضوعة عليه الطرينة، أمسكت دفتر الأوتومان وسلت منه ورقة، وشرعت تلف.

عـــاد إلى مكانه، تمدد على الفراش المبسوط في قعر الخص، يـــنظر إلى جسدها العاري. كانت تنظر نحوه بطرف عينها، لفت السيكارة، ولعتها ثم تمددت على ظهرها، تنفث دخانها إلى أعلى. مدت يدها بالسيكارة إليه. أخذها، شهق منها نفسا فتصاعد الدخان دائريا..

انفـــخ الدخـــان فـــي فمي. قالت. شهق نفسا ثانيًا وأدخله إلى رئتـــيه، ثـــم وضـــع فمه على فمها، كحت كحات سريعة، خفيفة ومتوالية، مسحت بيدها قليل من اللعاب تطاير على شفتيها، مدّ يده جانـــبا دفـــن رأس الســـيكارة، المشتعل، في التراب، مسح شفتيها بأصـــابعه، ثـــم قرب وجهه من وجهها وبدأ يمسح وجهها بشعر ذقنه، أمسكت بشعره وجذبته فوقها.

***

ألقـــى عـــودة بجسده في البحر، أخرج رأسه من الماء، نظر حوالـــيه، رأى غاليت، ألقت بجسدها في الماء وراءه. طوق بيديه خصرها و حملها عاليا، فصرخت، ألقاها بشدة في الخليج، ورش جسدها بالماء المالح، كانت تغمض عينيها وتصرخ.

***

اســـتيقظ علـــى وقع أقدام، رفع رأسه، رأى توماس وعساف قادميـــن، كان عساف يحمل كيسا بلاستيكيا أسودا. عرف أن الذي

بالكيس طريقة، وأن عساف خبأ ما هو أكثر، من الكمية التي بالكيس مرات، في طرف الجبل.

كانت غاليت لا تزال نائمة، بعد حمام البحر، تلف جسدها العاري بغطاء، نظر توماس إليها، عرف أنهما تنايكا، فابتسم، وقبل أن يجلس، قال موجها كلامه إلى عودة: قم وأعدّ لنا شايا، وسأحكي لك بعدها حكاية.. الشاي مقابل الحكاية، هذه مقايضة.. قال عودة، الذي خمن أن الحكاية مرتبطة به وغاليت. تستطيع أن تعتبرها كذلك. رد توماس.

أعد عودة الشاي وصبه في الفناجين، ثم جلس على ركبتيه، ينتظر حكاية توماس، الذي ظل صامتا، وحين طال صمته، طالبه عودة بالحكي، فتنحنح توماس على طريقة الرواة وقال: حين مات سالم احتاجت العرب لمن يصلي عليه، فأوفدوا حسان يأتي بشيخ. ركب حسان المارادونا وحين أطل على القرية، رأى حركة غريبة عند مدخلها، قال في نفسه: قد تكون حكومة. أوقف السيارة يستطلع الأمر. ولأنه لم يستطع معرفة السبب ، أدار الأمر في رأسه، ففضل العودة. وحين سأله العرب عن الشيخ.؟ أجابهم: لم أجد شيخا، ماذا تريدون من الشيخ؟.. قالوا: يصلي بنا على سالم، ثم ندفنه على سنة الله ورسوله. قال: أنا أستطيع أن أصلي عليه، على سنة الله ورسوله. تساءلوا: ولماذا لم تخبرنا أنك تعرف الصلاة؟. لم يسألني أحد. رد.

أسجى حسان الميت أمامه، ثم صفهم وراءه في صف طويل. قولوا مثلما أقول. طلب منهم، ثم رفع يديه قرب أذنيه وقال: يا

سالم. فردد المصطفون وراءه بصوت واحد: يااااسالم. ود يجوك اثنين. إن سعلوك عن الدقيق، قل وجاد والحمد لله. فردد الصف وراءه: قل وجاد والحمد لله. وان سعلوك عن الزيت، قل وجاد والحمد لله. وان سعلوك عن السكر، قل وجاد والحمد لله. وان سعلوك عن الشاي قل وجاد والحمد لله. ظل يدعو، وهم يرددون وراءه، حتى أتى على كل الأشياء التي يعرفها، والتي يحتاجها القوم في يومهم. بعدها هدأ صوته، ولوح بإصبعه السبابة، للجسد الساكن أمامه، وهو يضغط ع الحروف، وان سعلوك عن الطرينة. دس واجحد لا تودي العرب في داهية.

***

رفعت غاليت الغطاء عن رأسها، أيقظتها، جلجلة ضحك عساف، بعد أن أتم توماس حكايته، استفسرت عن سبب ضحكه، فحكى لها الحكاية. كانت الدهشة قد عقدت لسان عودة، لم يكن مندهشا للحكاية، بقدر اندهاشه من كون توماس هو راويها، ففوق انزعاجه الشديد منها، ضايقه كون توماس تسلل تحت أرجل البدو، وتشمم خصوصياتهم إلى حد، صار معه يستطيع أن يحكي من طرائفهم وخصوصياتهم ما يدهش..كم عرف توماس عنهم؟

كان عودة قلقا من معرفة الغربيين بخصوصياته، منذ اللحظة التي عرف فيها قصة البدويين، (حمودي وداهوم) صديقيّ لورنس، الذين اصطحبهما في رحلة إلى لندن، وهناك صارا محل تندر للإنكليز، الذين صاروا يلتقطون لهم الصور، مدهوشين من لباسهما العربي المزركش.

انـــزعاج عـــودة، لم يدفعه للتفكير في طريقة يتحاور بها مع تومـــاس، ففـــوق أن هذه المنطقة بالذات، منطقة الطرينة، والكلام حولهـــا وفيها وعليها، سيكون غير مريح، ثمة مشهدان لا يزالان طازجين في رأسه:

المشـــهد الأول: ما أبدته مرة غاليت، من كونها مرعوبة من تحـــول المـــنظومة الاقتصادية للبدو، إلى منظومة تابعة لمنظومة الســـياحة. ثم أردفت: النفسية البدوية لا تسمح بولوج البدوي هذه المنظومة، إلا من مدخل واحد فقط: الطرينة.

دفنـــت سيكارتها في الرمل، بعد أن شهقت النفس الأخير، ثم أضـــافت: شيئان أساسيان تعتمد عليها السياحة في سيناء، رياضة الغطـــس وتعاطـــي الطرينة. وكل الوظائف التي توفرها مثل هذه الســـياحة، لا تســـتهوي الـــبدوي، قالـــت وهي تنظر نحو عساف مبتسمة، من الصعب عليه أن يعمل نادلا مثلا.

الطريـــنة، تضـــعك في حالتين، البدوي يحبهما، الأولى جو الخطـــر الذي يحيط بدورة الطرينة، والثاني، وهو تقريبا الأقرب إلـــيه، إنهـــا شـــكل مـــن أشـــكال الـــتجارة، التي هي من المهن الأرستقراطية في وعيه.

المشـــهد الثاني: كان جالسًا في مقعده، ليس متأكدا، لحظتها، هـــل كان غارقا في أفكاره، أم كان منصتا للأستاذ، مثل ذلك العدد القليل من الطلاب الذين ينصتون للأساتذة. كان الدرس واحدا من دروس الفلسفة العربية، التي يحرص على حضورها، وحينما سأل الأستاذ سؤالا يعرف إجابته، رفع يده، وبدأ يجيب متلجلجا.

لفتت لكنته نظر الأستاذ، فبادره مستفسرًا: أنت من فين؟. من سينا. أجاب، قبل أن يريعه تعليق الأستاذ: أخبار البانغو عندكو إيه. وما أن بدأ يجيب حتى بادره: ما تاخدناش في دوكة، عشان أنا عارفكو كويس خالص يا بتوع سينا. أنا كنت في سبعة وستين، ضابط احتياط في صدر الحيطان. كنتو بتاخدوا السلاح من العساكر بشربة ميه. بدأ الدم يغلي في رأس عودة، فاندفع ..

***

(أوبا) .. خبطت يدي على قورتي، هذا ما نسيته تماما، حينما قابلت عودة، كان يقدم أوراقه في قسم الفلسفة، بينما كنت أجهز لاستلام شهادتي من قسم التاريخ. كان عليّ أن أنقل له تجربتي مع مثل هذه المواقف، إلا أنني، ولسبب لا أعرفه، نسيت. ومن هذا الذي نسيته أن أقول له مثلا: احلق لحيتك وقصر شعر رأسك، فاللحية عند المصريين وساخة، بينما الشعر الطويل خنافس.

ولكن هل نسيت بالفعل أم أعجبتني لحيته وشعره فتناسيت.. لا داعي الآن لأن أتذكر، فأنا خايف أن يستعير عودة تصرف عساف في موقف مشابه، وخوفي مرده أن عساف حين تصرف بذلك الشكل كان المطرح واسعا، بينما المطرح الواقف فيه عودة ضيقا جدا.

كان عودة وعساف، يسطوان على (ياميت)، وأظنك لابد تعرف أن اليهود قبل أن يرحلوا دمروها بالديناميت، وأبقوا المعبد، فأوقفت الحكومة المصرية حراسا عليه. يرشوان الصول المكلف

بالحراسة، يدخلان ويفكان المواسير والبلاط منه، ويحملانها ع الحمير، ويبيعانها.

المكان يطرقه السياح، جاء واحد منهم يبدو أنه (كلاس) مما جعل عساف يأخذ منه موقفا مسبقا، فوق اشتهائه الأكيد لمؤخرة امرأة الرجل، وبالفعل كانت لامرأته مؤخرة رائعة.

الموقف كله على بعضه، ضاغط على الأعصاب. هما يمارسان عملية سطو، بينما الرجل يتسيح، والذي زاد الطين بلة أنه لم يكن موفقا، في احتكاكه معهم فقد بدأ: انتو اللي ختوا السلاح م العساكر في سبعة وستين. وهنا انتفخ العرق، في رقبة عساف، شوح بيديه عاليًا، واتجه ناحية الرجل: كم شربة ميه، بيشربها الواحد لحد مايوصل لقناة السويس.. ذهل الرجل.. وعساف يواصل خطواته نحوه. انا اقول لك.. ثلاث شربات.. الشربة الأولانية بناخذ سلاحه، الشربة الثانية بنقلعه هدومه، الشربة الثالثة..هنا صار عساف عند الرجل تماما: بنيكه.. قال وتناول النظارة الفخمة جدا، من فوق عيني الرجل وأردف: ولو مسكتك هني ثاني هنيكك أنت كمان..

***

الحمد لله.. فقد خيب عودة ظني، حين أدرك ضيق المكان الواقف فيه، فتصرف بشكل أذهلني. مثلا لو كان شخص ما تعود أن يترك قومه فترة من الزمن في وقت معين من السنة. وحين شارف الرجل على الأربعين، عاد إلى قومه وقال: جاءني جبرائيل وأخبرني أني مبعوث لكم من السماء. ماذا سيقول القوم؟:

أنت كاذب. أنت مجنون. أنت أفاق ودجال.. ألم يجد الله أحدا كي يرسله لنا غيرك؟.. وهكذا الخ. كيف سيرد الرجل في هذه الحالة؟. هم غارقون في التفاصيل، وهو بالتأكيد أذكى منهم وخياله أوسع من خيالهم، وإلا لما قال أنا نبي. سيحاول أن يصّاعد بالجدال، بقدر تستوعبه عقولهم، سيقول مثلا: تعالوا نعبد الله ولا نشرك به أحدا.

سيضج المكان بزعيقهم معترضين على كلامه. هذا عن تصرف الرجل الذي قال أنا نبي، وعن رد فعل قومه. فكيف تصرف عودة في المدرج حين قال له الأستاذ أنتو ختوا السلاح منا ف سبعة وستين بشربة ميه؟ .. قال: سيادتك (عندما قال سيادتك رفعت إصبعي الإبهام، لأني تأكدت تماما بأن عودة عرف أصول الحوار) بتقول أن البدو هم الذين أخذوا منكم السلاح في سيناء. ثم صمت للحظة.. كان يرتجف. (وهنا بالضبط كاد أن يستعير فعل عساف). لولا أن لحظة الصمت ساعدته على ضبط أعصابه. فقال: الذي أدى لهزيمة سبعة وستين ليس البدو على كل حال.. الذي سبب الهزيمة في سبعة وستين هو خوف جندي مكلف بحراسة قائد من إيقاظه، حين وصلته الإشارة من مركز القيادة العربية الموحدة بالأردن، بأن اليهود هاجموا، خاف الجندي، وفضل الانتظار حتى يصحو القائد من نفسه.

كان يعتقد أنه بهذه الحكاية الصغيرة، قد اختصر حكاية الحرب كلها، وأن صدى كلامه لابد سيكون جيدا، على الأقل من قبل زملائه الطلاب، ولكن رد الفعل فاجأه، فما أن أتم الجملة،

حتى امتلأت القاعة بالضجيج، والعبارات المعترضة بلا نظام. كان يريد أن يتم حديثه عن البانغو، ولكن الأستاذ زجره وأمره بالجلوس.

خرج من القاعة، يحس بأن رأسه يغلي، وجسده يرتجف. استقبلته زُهرة، سألته عما به. أخبرها بما حدث. عضت على إصبعها، ثم نفضت يدها وهي تردد: أنت مجنون؟. وصل حميد وأمسكه من رسغ يده اليسرى، فآلمه جرير الساعة في معصمه، كان حميد يشده، وهو يحاول أن يبعد جرير الساعة عن ضغط يد حميد.. وحين ابتعدا همس له: دير بالك يا عودة.

***

لماذا ضج الطلاب من رد عودة؟. عودة قال كلاما يُرجع سبب الهزيمة إلى الحالة التي سماها، حمدان أبو كايد في سطور سابقة: الخوف.

ورغم أن الناس على الرصيف يعرفون أن الخوف (بالأحرى عدم رد فرعون) سبب كل البلاوي، إلا أن الطلاب وأستاذهم لم يتحملوها حين قالها عودة، تماما مثلما لم يتحمل القوم رجلهم حين قال تعالوا نعبد الله. في الحالتين لا أحد اعترض على الفكرة، وفي الحالتين كان الاعتراض على كينونة قائلها.

ربما لو كنت أنت مكان الطلاب وأستاذهم لسألت: كيف يتم التخلص من حالة الخوف؟. لا تقلق سأتركك تجاوب بنفسك (ليس فقط لأني أشعر أنك تضع أسئلتك في دربي مثل القنابل، فأنا قادر

علـــى تـــركك تـــنزع شـــوكك بـــيديك) ولكن لأن عندي تجربة سأعرضها ربما تساعدك وأنت تنزع ذلك الشوك.

الله قام بعملية تفكيك للخوف من قلوب ناس ما، في لحظة ما، مـــن لحظـــات الـــتاريخ. كـــيف؟. سحب اليهود من تحت عباءة الفرعون، وتركهم يتيهون في سيناء أربعين عاما. لماذا أربعين؟. حـــتى يموت الجيل الذي رُبيّ على عبادة فرعون وينشأ، في تلك الصحراء، جيل جديد يذوق طعم غيرها.

أنت سألت وأنا قلت ما عندي. أجب الآن على سؤالك بنفسك. أمـــا أنا فسأستغل هذه اللحظات لأقول: إني اعتقدت أن جدل عودة لـــن يفضـــي بـــه لهذه المنطقة التي أراه غرق فيها، ولكن ولأن الأمـــور أعمـــق مما تخيلت، فأنا سأتقدم لأقربائي البدو، بنصيحة أراها هامة جدا، فإن كنت بدويا ومن سيناء، فبإمكانك قراءتها، أما إن لـــم تكن، وهذا بالتأكيد أفضل لك، فارمها وراء ظهرك واقفز مباشرة إلى ما يليها:

ليكـــن في ذهنك أن "راعي الغنم نجس عند المصريين". ومن ثـــم حاول قدر المستطاع، أن لا تتنطط، كما تفعل في الصحراء، بـــبداوتك. عطفـــا علـــى ذلك التنطيط، أريد أن أذكرك، أن بدويا مـــثلك، كان ذلك منذ أكثر من أربعة آلاف عام، هو يوسف عليه السلام، ولكي يَنفذُ في المنظومة، تماهى تماهيا مطلقا مع السيستم، للدرجـــة التي جعلته يستخدم واسطة، كي يصل الى الفرعون. لا تقـــل ولكن الله جازاه على هذه الفعلة، بأن تركه يمكث في السجن بضع سنين أخرى، فالله جازاه لأنه نبي، أما أنت فلن يجازيك الله

مطلقـــا، لأنه أبدا لن يحولك نبيًا، حتى لو رعيت الغنم أربعة عشر عاما في طور سيناء، لا سبعة فقط مثلما فعل موسى.

***

كان عودة متضايقا بينما زُهرة وحميد يقتادانه إلى الكافتيريا، طلـــب شـــايا ثـــم ولـــج إلى الحمامات، وضع كفيه تحت الحنفية وملأهمـــا ورشق وجهه، ورغم أنهما حاولا أن يخفيا عنه القناعة التـــي تولدت لديهما، بأن رسوبه صار أكيدا في هذه المادة، إلا أن قناعـــتهما لـــم تخف عليه، إذ صار واضحا له، انه لن ينجح أبدا فـــيها، وفي داخله كان القرار واضحا: إذا رسب سيترك الجامعة بلا رجعة.

كانـــت زُهرة ضجرة من تصرفه، وكان هو متألما لضجرها، مـــا آلمـــه أكثر، محاولتها المكشوفة مداراة ذلك، فقد أحس أن في هـــذه المـــداراة شعورا بالشفقة، يصحبه إحساس بأنه كانت تنقصه لـــياقة أهـــل المدينة. وشعور شخص ما بالشفقة نحوه، خاصة لو كانت امرأة، يذكره باليتم ويشعره بالضعف، وهما إحساسان يعيش حالة صراع للهرب منهما.

يشـــعر بـــأن ثمـــة شـــيء يـــربطه بزُهرة. فهي ولدت في الإســـماعيلية، أبوهـــا كان يعمل مدرسا في ليبيا، اشترى في هذه المديـــنة الواقعـــة على الضفة الغربية لقناة السويس، قطعة أرض وبـــنى عليها بيتا، مواجها اعتراضات زوجته القاهرية بقوله: هذه المدينة حديثة والأرض فيها رخيصة. ترد المرأة: استثمار يعني.. فيهز رأسه موافقا، ويتمتم: كي أكون قريبا من آسيا.

اشترط اليهود، لفك الاشتباك بعد حرب أكتوبر، أن يعود سكان مدن القنال الثلاث، التي هجرها سكانها على أثر حرب الأيام الستة، وكان سكان هذه المدن سعداء بالعودة إلى بيوتهم، بعد سنوات الشتات التي قضوها في وسط الفلاحين، هؤلاء الفلاحون الذين كانوا يعيرونهم على الدوام بكونهم غلوا عليهم سعر الملح.

عملية إعادة الإعمار تمت بدولارات دويلات البترول، بعد أن دفعتها أمريكا إلى هذه العملية دفعا، فصارت هذه المدن تغري بالسكنى والاستثمار. لم يبذل أبوها جهدا كبير لإقناع أمها بالموافقة، وإن كانت تمصمص شفتيها وتقول: بس مصر أحسن يا عبرحمان..

كان عبد الرحمن طفلا حين النكبة، يعيش وأسرته في صحراء النقب، قرب بئر السبع، وحين تدخلت الجيوش العربية في فلسطين، أراد الملك فاروق أن يستولي على صحراء بئر السبع، كي يعطيها للإنكليز، ليقيموا عليها قواعد، بدلا من قواعدهم، التي على الضفة الغربية لقناة السويس.

تقدم جيش الملك في صحراء النقب، ولأن الرياح أحيانا تأتي على غير رغبة القباطنة، اشتبك الجيش المتقدم مع اليهود، واضطر سريعا للتراجع، بعد أن جرح بعض رجاله، وكان من بين هؤلاء الرجال الجرحى، ضابطا صغيرا زحف على بطنه، حتى وصل خيمة وضاح المجاورة. فوجىء وضاح بالجريح، وأمسك بفرشاة القهوة ومسح بقاياها من حواف الهون، وضعها

علـــى الجرح ثم أحكم الرباط فوقه، وخلع جلبابه واكتفى بسروال طويل وفانلة، وألبس الضابط الجلباب، بعد أن فك البزة العسكرية عن جسده ولفها، ثم دفنها جوار البيت.

فـــي الصـــباح جابت دورية اليهود البيوت، بحثا عن الجنود الفارين، توجس الضابط الجريح، توقف الجيب وهم متحلقون حول الـــنار، نـــزل منه جنديان، يدلي أولهما مسدسه على جنبه، بينما يتوشـــح الآخر بندقية من طراز عوزي، انتصب الأب على قدميه وهو يردد: يا مرحب. تفضلوا.

أخـــذ العســـكريان موقعهمـــا، بيـــن الرجال المتحلقين، حول جمـــيرات النار، المدفوس في طرفها بكرج القهوة، بينما وضاح يرفع غطاء البكرج ويسكب حبات الهال فيه، قام واحد من أولاده وشـــطف الفناجيـــن. صبّ وضاح لنفسه فنجانا شربه مرة واحدة، كانـــت القهوة سوداء، مرّة وشهية. صبّ للجنديين، الأول لم يسغ مـــرارة القهوة، أما الآخر فشرب فنجانه في جرعة واحدة، ثم مده نحـــو الـــرجل. صـــبّ فنجانا ثانيا له، شربه بنفس الطريقة، هز مؤخـــرة الفنجال وناوله للشيخ وهو يردد: عمار. عرف الشيخ أنه القائد.

أشار العسكري بإصبعه نحو أولاده بالتتابع سائلا: هذا ابنك، مـــا اســـمه؟. كان يسأل والشيخ يجيبه، حتى وصل إلى الضابط، أشـــار نحـــوه، ثـــم نظر في عيني الشيخ مليا، قبل أن يقول: هذا مصـــري؟ لـــم يهـــتز وضاح، ظل رابط الجأش، نظر إلى محدثه مبتســـما: هـــذا ولـــيدي ســـالم .. سالم هذا، ينصرك ربي، طالع

لخوالـــه.. ثـــرا يا خوي أمه مصرية. قام العسكري، فتبعه رفيقه، ســـلما ثـــم مضيا نحو الجيب، وقبل أن يجلس وراء المقود، التفت إلـــى الشيخ: إن رأيت مصريين أخبرنا. ثم أدار المحرك ومضى مبتعدا.

التفـــت وضـــاح إلـــى أولاده، الذين بدأوا يستعدون للتحرك، فســـكنوا في أماكنهم. قال مخاطبا أكبرهم، تراه صدقني. هز الابن رأسه نافيا. فقال واحدا من الأولاد: أظن انك ما كذبت. ثم أردف: هذا المصري من جيل أولادك، وبريدة الله انه سالم.

***

بعـــد أن خفت جروح العسكري، وقبل أن يرحل دسّ في يد وضـــاح ورقـــة. و لكـــن كيف حولت ورقة صغيرة مستقبل هذه الأســـرة؟ لدرجة أن تقابلنا، ونحن نتعقب آثار عودة، زُهرة حفيدة ذلك الرجل، توزع المنشورات في جامعة القاهرة.

لهذا قصة طويلة، سأختصرها، مستعينا بالمثل الشائع "الطويل يتعـــبك والقصـــير يشقيك" متغاضيا عن الإيحاءات الجنسية التي يحملهـــا. بعـــد خمـــس سنوات، سيكون وضاح بين أولئك الذين هـــاجمهم شـــارون سنة **1953**. فرّ الناجون وكان وضاح، الذي استضـــاف الضـــابط المصري، وأبناؤه من بين الفارين. أسكنتهم الحكومـــة المصـــرية على الحافة الشرقية للحدود، في بطن جبل شاهق، والدوريات الإسرائيلية ترشم الحدود أمامهم كل ساعة.

ذهـــب الرجل، إلى بلدة نخل، يجر جديا. باعه، وحين أخرج محفظـــة الجلـــد، ليضع ثمنه، رأى الورقة، وقرر أن يلقي بما لا

يعرف، ويحتفظ بما يعرف، وسيكون الملقى حتما، هو الورقة، لا المال. ولكن، وقبل أن يرميها، جاءه خاطر، جعله يضع المال في المحفظة، ويبقي الورقة في يده.

قلب وجهه يمينا وشمالا، رأى بائعا واقفا وراء طاولة من الخشب، في واجهة دكانه، ناوله الورقة، وطلب منه أن يقرأها. نظر البائع فيها، ثم التفت إليه: هذي فيها رقم تلفون، وفيها اسم وعنوان.. ايش هو الاسم. سأل وضاح. وما أن نطق البائع، حتى تذكر ذلك الضابط.

***

قفز عبد الناصر على السلطة سنة **1952**، فتغيرت الخريطة الاجتماعية لمصر، تراجعت طبقات وتقدمت أخرى. ومن بين الذين تراجعوا طبقة الباشاوات، وعلى رأسها مصطفى النحاس، الذي رأى أن العسكر مثل الدبابة الصاعدة جبلا، وعلى الكل الابتعاد عنها، لأنها ستفرم من يقف في طريق صعودها، وحين تصل القمة ستقع وتدشدش لوحدها، وكان ذلك الضابط من بين الذين أفسح لهم الباشاوات طريق الصعود.

***

طلب البائع النمرة. مين؟ سأل الضابط. عندي رجل يريد يحدثك. اسمه ايه؟. وضاح. خليه واقف عندك، إن مشي هدخلك السجن. ظل الرجل واقفا أمام الدكان، بينما البائع يرتجف. اتصل الضابط بأقرب ثكنة إلى المكان، وأمر بإحضار الرجل وأولاده.

حيـــن وصل الجيب للدكان، سأل الضابط الجالس إلى جوار الســـائق: فيـــن الراجل اللي اسمو وضاح؟. أنا يا بيه. رد. اركب معانـــا. وحين ركب، سألوه: العشة بتاعتك فين. ورغم أن وصف بيـــته بالعشـــة ضايقه، أخبرهم بمكانها. حين وصلوها ضموا إليه باقي أسرته، وانطلقوا.

حيـــن وصلوا مصر، أبقوا الأسرة راكبة في الجيب، وأدخلوه علـــى الضابط؛ فأمر العساكر أن يأخذوه لواحد من القصور، التي اســـتولى عليها العسكر وضموها لمؤسسات الدولة، وعينه غفيرا عليه. أقام وضاح عشة لأسرته في الخلاء القريب من القصر، ثم بدأ في التحويط على الخلاء، حتى استولى عليه بطريقة وضع اليد التي هو خبير بها.

دخـــل عـــبد الرحمان المدرسة، وبعد ستة عشر عاما، تخرج من كلية التربية الرياضية، ثم سافر إلى ليبيا وعمل مدرسًا هناك. ســـلمته الحكومـــة الليبية بيتـــا مجهزًا، ولم يمر وقت طويل حتى ســـئم الشقة المكيفة، وحن لخيمة في العراء؛ فالتحق بحركة فتح، وترقى في صفوفها سريعا حتى سار من قادة فرعها في ليبيا.

فجـــر يـــوم ما طُرق باب شقته، وبعد ما فتح الباب، لم يعد لفراشـــه أبـــدًا. بحثـــت زوجته عنه في كل مكان، ذهبت لقارئ الـــورق، فأخبرها إن زوجها موجود في مكان ما تحت الأرض. فذهبت للعقيد القذافي تشتكي، وعدها بأن يعيده. ظلت تنتظر، حتى بعث أبوها، من مصر، جوابا يطالبها بالعودة. فعادت تحمل زُهرة في حضنها.

***

ثمة من أطلّ برأسه، بين سطور هذا النص، مرات عدة، لكنه في كل مرة يعود ليختفي. مرة قلنا إنه الشايب وأخرى جد عودة و... لكن لو أخذنا كل هذه الأوصاف ونزلنا بها إلى الناس الذين يعيشون حول هذا السرد، لن نجد واحدا يشير بإصبعه نحو الرجل، لا لعيب، لَخْبط ذواكر الناس، مثل الفيروس، ولكن لأن استراتيجية بحثنا واسعة جدا. فمئات الناس أجداد لمئات العودات، ومئات من الناس شيّاب، فأي شايب منهم وأي جد هذا الذي نريده؟ سأجيب ولكن بعد هذه الحكاية:

كان الجنرالان، موشيه دايان وارئيل شارون، في الطائرة، حين أشار دايان بإصبعه على المنطقة وقال: ما كان الأمر ليكون أسوأ لو لم يكن هنا عرب، ولو كان الوضع بيدنا لعملنا على تسييج المنطقة. لاشك أنك ستسأل أي منطقة هذه التي أشار عليها دايان؟ سأقول لك ولكن بعد أن أجيب على سؤال ينبض في عقلي كالشريان: بأي إصبع من أصابع يديه أشار دايان؟.

لأن غالبية البشر يستخدمون أيديهم اليمنى، وهذا لا يعني بالمرة تقليلا من شأن مستخدمي اليسرى، سأفترض أن الجنرالات ينتمون للغالبية، ومن ثم سأزيح اليد اليسرى جانبا، وأرفع اليد اليمنى أمام عينيّ، ثم أتخيل الإصبع الذي أشار به الجنرال، بالتأكيد لم يستخدم الإصبعين الخنصر والبنصر، لصعوبة التعامل بهما(جرب بنفسك لكي تتأكد). ولن يستخدم الإبهام.. لماذا؟ لأنه، وإن كان يحب رفع الإبهام إلى أعلى، لأنها علامة النصر، فأنه

سيشـــير إلـــى السماء، ودايان يريد الأرض، أما إن أشار به إلى الأســـفل، فهـــذه علامـــة الهزيمة، والجنرالات لا يطيقون مجرد تذكرها.

ومـــن ثـــم فسينحسر بحثنا في الإصبعين السبابة والوسطى، فايهمـــا أســـتخدم دايان ؟.. من الصعب عليّ تخيل جنرال يستخدم إصبعه السبابة، ليس لأن البشر العاديين يستخدمونه فحسب، ولكن لأنه أصغر من الثاني، والجنرالات يميلون دائما نحو الأكبر، لذلك فدايان بالتأكيد استخدم إصبعه الوسطى.

بعـــد أن اتفقـــنا أن دايـــان اســـتخدم إصبعه الوسطى، أعود لسؤالك، أي منطقة التي أشار نحوها؟ المنطقة هي مضارب قبيلة ارميلات، التي ننتمي إليها أنا وعودة، وهي تمتد ملتصقة بالحدود الشـــرقية لســـيناء، عـــند التقاء البحر بالصحراء، ولكن لماذا هذه المنطقة بالتحديد؟ لأنها المدخل إلى "صحن سيناء" والجنرال يريده أن يكـــون ســـالكا أمامه في أي وقت. ظل سؤال واحد ونقفل هذا الملـــف نهائـــيا، لماذا لم يأمر دايان، وهو وزير الدفاع، مرؤوسه الجـــنرال شارون، وهو قائد المنطقة الجنوبية، التي تقع المضارب تحت إمرته، بإخلاء المنطقة من العرب مباشرة؟.. لأن دايان يريد أن يـــبدو عسكريا نبيلا مهتما بالآثار وكلاسيكيات الموسيقى، ومن ثم فهو لا يريد أن ينكشف تاريخه ملوثا بترحيل بدو وما شابه.

رحلـــت القبيلة إلى نفس المكان، وفي نفس اليوم، الذي حدده جـــيش الدفاع، بعد عيد الأضحى بثلاثة أيام، بعد أن باعوا أغنمهم لأن المـــنطقة التـــي خصصـــها الجيش لهم ليس لها مراع، وكان

الوحيد الذي بقي من القبيلة، وصمم على عدم الرحيل، هو الرجل الـذي يسمونه أبو الجدايل (وحين أطل علينا في السرد سميناه جد عـودة مـرات والشـايب مـرات أخرى و ...). والتسمية (أبو الجدايـل) عائدة لكونه لم يقص جديلتيه أبدا، حتى حينما طلبوا منه قصـهما، عندما صوروه لعمل هوية، أيام عبد الناصر، رغم كل الـتريقة التـي كالها له الضابط، المسئول عن استخراج الهويات، يومئذ.

العجيـب فـي الموضوع أن السلطات الإسرائيلية، لم تبد أي انزعاج من عدم رحيل أبو الجدايل. فقط جاء به الحاكم العسكري، وبعد أن قدم له فنجان قهوة، ناوله ورقة:

- وقع ع الورقة هذي..
- وش ف هالورقـة.. انـا يـا وليدي لا بعرف اقرا ولا اكتب..
- وريقـة يـا شيخ. وقع بس. وقع عليها انك متصالح مع الدولة.
- ومـن اللـي قـال لـك إن انا ما انا متصالح مع دولة اسرابيل.
- ابصم ذنّي.
- ولا آني باصم. انا مصالح وخلاص.
- قل انك ما أنت مريد تصالح الدولة.

- لا.لا يـــا وليدي، انا مصالح الدولة. بس انا رجل بديوي. لا بعـــرف القراية ولا بعرف الكتابة، بعرف راعي البيت، إن كان ودك جبت لك راعي بيت يكفل إني مصالح .

- إحنا دولة، وبنتعامل بالورق.

- انتوا دولة.. انا ما آني دولة.

- لمّـــا مـــا أنت مريد تصالح الدولة.. ليش جيت ذنّي. قال الحاكم ضاحكا.

- جاني الجيش وقال لي الحاكم وده ياك. لبيت، واسوي لك اللي انا اقدر عليه. أما صلح الدولة، هذا شي ما لي خصة به، ما هـــو انـــا اللي يصالح دولة اسراييل، ولا يغاضبها. ولكن تدري، اقول لك، من جدك أنت تريد اللي يصالح دولة اسراييل.

- نعم. قال الحاكم بفضول.

- اللـــي قادريـــن يصـــالحوا دولة اسراييل هم اثنين ما لهم ثالث.. حافظ الأسد في الشام.. وأنور السادات في مصر.

ولكـــن.. لمـــاذا يشـــغل الحاكم رأسه بمصالحة أبو الجدايل للدولـــة؟. تقـــوم الاستراتيجية الإسرائيلية على فكرة بسيطة، هذه الفكرة تقول أن الأرض هي أرض إسرائيل، أما ما فوقها فهو ملك للعـــرب نتيجة عيشهم عليها أكثر من ألفي سنة، ومن ثم فآخر ما للعربـــي عـــند الدولـــة هو التعويض، يستلم الشيك ثم يغادر لحال سبيله.

أبـــو الجدايـــل لـــم يـــرفض الشيك، لأنه كشف استراتيجية إسرائيل، فهذا آخر ما يفكر فيه، ولكن لأن ثمة سبب لعدم رحيله،

ومـــن ثـــم عدم مصالحته للدولة واستلام الشيك، ظن أنه دسه في نفسه، وقدر على إخفاءه عن الحاكم، وهو رغبته في إكثار غنمه، ليستخدمها مهر لزواج حفيده عودة بعد سنوات.

والحـــاكم الذي قرأ ما في رأس أبو الجدايل، لم يصرفه كرما أو رجولـــة، ولكن لأن فكرة بسيطة قفزت إلى ذهنه. الرحيل عن الأرض، هو مطلب الحاكم من أبو الجدايل، والغنم هي التي تبقي أبـــو الجدايـــل ملتصـــقا بهـــا، فلمـــاذا لا يطلق عليه اللصوص، واللصوص عرب، ومن ذقن أبو الجدايل فتل له.

***

أنـــا أحببـــت غاليت، وغاليت تزوجت عودة، وزُهرة أحبت عودة، وتزوجها حميد، معادلة شرق أوسطية بامتياز، لم تنج منها حتى غاليت، ولكن الذي يهمنا من هذه المعادلة هو شخصياتها:

– ربـــيع: تقمصت حالة الحصيني، في المثل البدوي، إذ ظل الثعلـــب، يحـــاول الوصول إلى شرش العنب المتدلي من الكرمة، وحين عجز، لف ذيله ورحل وهو يقول: اللهم اقطع نصيبنا منه.

– زُهـــرة: تقدم حميد لخطبتها، فسألته أمها: يا ابني أنت من فيـــن؟. أنـــا م اليمـــن.. رد، ولأنها لا تعرف كلمة (اليمن) غير مـــربوطة بـــ (حربة) فقد خبطت يدها على صدرها، والتفتت نحو ابنـــتها: إحنا نطلع من حربة الفلسطينيين اللي راح فيها أبوك على حـــربة اليمـــن. دا الوقت مافيش حرب في اليمن ياماما، الحرب كانـــت في الستينات. ردت زُهرة. ماعرفش ستينات من سبعينات. اليمن دي لأ.. يعني لأ.. قالت أمها بحسم.

– حميد: بالرغم من كونه مؤلما له، أن لا تعرف أم زُهرة عن بلده غير حرب اليمن، إلا أنه تصرف حسب مقتضي الحال، قال لأم زُهرة سأتزوج وأعيش في مصر، وبعد أن كتب الكتاب تناول زُهرة من يدها، وركب تاكسي إلى المطار، ومن هناك بالطائرة إلى تعز..

– غاليت: في اتفاقية الحدود، بين مصر والشام، التي خطها الضباط الإنكليز والعثمانيين سنة **1906**، ورد في المادة رقم **8** ما مفاده: أن يبقى عربان الجهتين على ما كانوا عليه. والذي كان عليه عربان الجهتين هو التنقل بحرية من هذه الجهة إلى تلك.

وفي اتفاقية كامب ديفيد استند الإسرائيليون على تلك المادة في اتفاقهم مع المصريين، فصار لمواطنيهم الحق أن يتنقلوا بالهوية الشخصية في سيناء حتى شرم الشيخ، وللبدو في سيناء نفس الحق في الانتقال إلى الناحية الأخرى بذات الطريقة، فنفذت الحكومة المصرية اتفاقها مع الإسرائيليين، ومنعته عن البدو.

وبما أن غاليت كانت في إسرائيل، قبل أن تجتاز معبر طابا إلى سيناء، فهي والحالة كذلك ضيفة إسرائيل، ولأن ضيف المضارب له نفس الحقوق، وعليه نفس الواجبات، لم يكن مسموحا لها أن تتجاوز شرم الشيخ غربا.

– عودة: حين اتفق مع غاليت على الزواج، واجهتهم مشكلة، فلكي يتزوجا زواجًا رسميا لابد من توثيقه من السفارة الرومانية في القاهرة، وبطاقة دخولها لا تسمح لها بالسفر بوصة

واحدة غرب شرم الشيخ، ذهبا إلى مكتب أحد المحامين في نويبع، ووكلاه في توثيق العقد من السفارة نيابة عنهما.

ولأن المحامي عميل لأجهزة الأمن، فقد بلغ على الفور، وقبل أن يتخذ عودة وغاليت مكانيهما بيننا، رأينا الرجال بلباسهم المدني هابطيـــن إلى الكامب، قال عساف: الضابط والمخبرين. مرعوبين انتصـــبنا نحن البدو واقفين، وبطاقاتنا في أيدينا. وصلوا، فلم ألحق أن أطلـــب مـــن غاليت أن تتعرى، حتى أجد منطقة أنفذ منها في أعصاب الضابط. قلبوا بطاقاتنا، ثم اقتادوا عودة ومضوا.

***

ثمـــة مـــا تلتقي عنده كثير من الوظائف: مثلا عميل الأجهزة الأمنية والصحفي في صحيفة صفراء. الصحفي، والحالة تلك، لا يعتنـــي بالخبر ولا بالتعليق عليه، كما يفعل الصحفيون في الجرايد المحترمة، بل بالإثارة التي يعكسها الخبر، وعميل الأمن، لا يعتني بدقـــة المعلومـــة التي يُسر بها في أذن مستخدمه، بقدر ما يعتني بكمية الإثارة والغموض التي تحف بها.

ومـــن ثـــم وصلت المعلومة، من فم المحامي، إلى أُذن رجل الأمـــن الصغير، القابع وراء مكتبه، في هذه القرية النائية: غاليت سائحة دخلت من معبر طابا(وهذا يعني أنها جاءت من إسرائيل)، عملـــت نادلة في كامب، أصحاب الكامب بدو (...)، وفي فترات أجازاتها، تجوب بكاميرتها مضارب البدو. ورجل الأمن الصغير، أوصلها لرئيسه، بعد أن أضاف عليها بهارات أخرى من الإثارة. وهكـــذا ظلـــت المعلومة تصّاعد، من مسئول صغير إلى مسئول

أعلى، والبهارات تتزايد، فذهبت القضية الأصلية (زواج بين اثنين شاب بدوي يحلم بالخلاص، وشابة، هي سائحة رومانية، رأت في ذلك الشاب تحفة من العصور الوسطى) قبض الريح.

قبل أن أرفع الغطاء عن سيارتي، عرفت أنها في وضع لا يطاق، ركنها فترة طويلة على الطريق الرئيسي، حملها بكمية هائلة من التراب، لم أعتن بتنظيفها، جلست وراء المقود، كمية الغبار على الزجاج تعيق الرؤيا، شددت غترتي من فوق رأسي، وأخرجت يدي من الشباك ومسحته، صارت قذرة، فرميتها فوق التابلوه وأبقيت رأسي عاريا. مررت أصابعي في شعر رأسي، كان طويلا وقذرا، رأيت وجهي، في المرآة المغبرة، شاحبا وذقني طويلة وسيئة. قدت سيارتي، صرت أكثر قناعة بلا جدوى ما أنا مُقبل عليه، قفز اسم عودة في رأسي مثلما يقفز الفيروس على شاشة الكمبيوتر "اقفل برامجك.. سأعيد تشغيل الجهاز بعد دقيقة". فأحس أنني مثل حشرة تحت عجلة تراكتور. ثم أبدأ في إغلاق برامجي مستعجلا، والثواني تواصل تناقصها، أمامي على الشاشة، من **60** إلى صفر، أعقد يديّ على صدري مطيعا، كما أطاعت قبيلتي الأمر الصادر من فم شارون، بترحيلها من أرضها سنة **1970**.

مثلما عالجت الفيروس، بتوزيع كل الملفات من القسم سي، إلى أقسام أخرى داخل الكمبيوتر، ثم مسحت الويندوز، وحملته من جديد، فسوف أزيح كل ما أرويه جانبا، وأبقي على عودة فقط.

ليس بهدف مسحه، والحكي عن غيره، ولكن ليكف عن التقافز في رأسي مثل الجدي بعد أن يشبع من ضرع أمه.

ثمـــة ما نتشابه فيه، أنا وعودة، ففضلا عن كوننا تماثلنا في شـــهقة الهـــواء الصحراوية الأولى، فإن أمي قطعت حبلي السري بحجريـــن، بينما قطع جده سُرته بالسيف اعتقادا منه بأن هذا كفيل بجعلـــه فارسًـــا. فوق ذلك، كان لكل من اسمينا علاقة بالـــفقير. كادت أمه أن تختار له اسما غير عودة الذي اختاره الفقير، ولكن خوفها من أن يأخذه ملك الموت، إن غيرت الاسم هو الذي ثناها. فـــالذي زرع الرعب في صدرها، أنها وما إن تأملت وجهه، حتى تبينت الشبه بينه وبين وجه جدها عودة، والذي كان أعرجا، فظلت قلقة على قدميه من أن تكون واحدة منهما عرجاء.

***

جـــف ريقي، فأوقفت سيارتي أمام كافتيريا بجوار المخفر. طلبـــت شاياً، جاء رجل وجلس إليّ جواري، تذكرته على الفور، هـــو رجل أمن (مُخبر)، بعتُ امرأته قميص نوم، أيام كنت أعمل بائعا متجولا، ولما لفتت المرأة نظري لوظيفة زوجها، رفضتُ أن آخذ ثمن القميص، مكتفيا بالتعرف عليه.

أمســـكتُ كوباية الشاي في يدي، وذهبت إليه، ذكرته بنفسي، وأخـــبرته أن لـــي قريبا مقبوضا عليه، همستُ له بأني مستعد أن أدفـــع لفك أسره. وحين أتممتُ عبارتي، قال والعصافير تقفز من عينـــيه: ايـــه بقى حكاية قريبك دا يا سيدي؟ اتكأت بكوعيّ على الطاولـــة، وحيـــن صار وجهي قريبا من وجهه، أخذت أحكي له

القصـــة، لكـــنه ما أن سمع اسم عودة حتى اصفر لونه. عاد إلى الوراء وهمس لي: عودة دا أنساه خالص..

حيـــن عـــدتُ إلى الكامب، وأسررتُ لعساف بما سمعته من رجـــل الأمـــن، رأيتُ المسافة تضيق بين عينيه، قام واقفاً وصعد الجـــبل، لحظـــات ورايـــته عائدا وفي يده كلاشينكوف، استغربت مـــنظره متأبطاً سلاحاً، فوق أني لم أتخيل للحظة واحدة، أن يكون قد خبأ سلاحاً هنا.

لـــم أتوقـــع ماذا سيفعل، شهر السلاح في وجوهنا، وأمرنا جمـــيعاً بالوقوف. تلكأنا فأز الرصاص فوق رءوسنا، اعتقدتُ أن جـــنون أمـــه ركـــبه فقمت واقفا، تبعني توماس وغاليت، همّ بقية الأجانب بالوقوف، فزجرهم: خلك على ما انت عليه.

أمـــرنا أن نـــرفع أيدينا فوق رءوسنا، أطعنا صاغرين. أشار بفوهـــة بندقيته نحو توماس: هات كنبيوترك واركب الجمل. تناول تومـــاس، الـــذي تلبسه الرعب، اللاب توب واعتلى ظهر الجمل الـــبارك. ثـــم أمر غاليت أن تأخذ الكاميرا في يدها وتركب وراء تومـــاس. وضـــع رسن الجمل في يدي، وطالبني بالمضي، وسار وراءنا.

قـــدت الجمـــل نحو الإسفلت الرئيسي، كما أمرني، وصرت أخمـــن الـــذي ســـيفعله. سيخاف من عشيرتي إن هو أقدم على ذبحـــي، غاليـــت لن يذبحها من أجل عودة، والعلاقة التي تربطه بتوماس ستحمي توماس من إيذائه، ماذا سيفعل؟..

شعرت ببرودة فوهة الكلاشينكوف على رقبتي، فضممت يديّ كجناحيـــن على صدري، بينما غاليت المحشورة في الكابينة، بيني وبين توماس الذي يقبض على اللاب توب، ترتجف. رفعت كتفيّ بحيـــث كادتـــا أن تداريا رقبتي، فلكزني عساف بماسورة البندقية وهو يأمرني من وراء اللثام: يللا.

كنـــت أنـــوي أن أسير إلى الأمام، ولكنه، وقد صار يحدثني بلكـــزات البندقـــية، دفـــع بفوهـــتها رقبتي نحو اليمين. تشاغلت بانحـــناءات الطريق الترابي والتواءاته والنبتات البرية الفقيرة على جانبيه، عن تخيل ماذا سيفعل بنا هذا المخلوق، المتمدد على بطنه في صندوق السيارة، واضعا فوهة بندقية بجوار أذني.

ســـرنا، والســـيارة تـــتقافز بنا مثل أرنب بري، طوال الليل. وحيـــن أشـــرقت الشمس، تبدى لنا جبل "طلعة البدن" حدست أنه سيأخذنا إليه. جلس توماس وغاليت عند سفح الجبل، واتكأ عساف إلـــى جوارهمـــا، مستندا على حجر. ألحت عليّ صورة أبو زيد؛ فحين أراد الخليفة العباسي أن يؤدب، الزناتي خليفة، حاكم تونس، أوحـــى للهلالية بأن تلك البلاد فيها الخير كله؛ ولا ضير عليهم لو استولوا عليها. أراد أبو زيد أن يستطلع تلك الأرض (أبي قال في ســـياق مشـــابه وهـــو يلوح بإصبعه السبابة راسماً قوس قزح في الهواء: القائد العظيم هو من يستطلع أرض العدو بنفسه). أخذ أبو زيـــد أبـــناء أخيه (وكانوا ثلاثة) وغادر المضارب، لا أحد يعرف إلـــى أين. في خلاء الله الخالي أناخوا أبلهم. تلفع أبو زيد بعباءته: أولاد أخـــوي قرصـــة وبكـــرج قهوة. طلب منهم واستلقى مغطياً

وجهـــه. بعد حوالي ربع ساعة، رفع العباءة عن رأسه، وقال وهو يدعـــيّ الفـــزع: وين القرصة وبكرج القهوة. ما لقينا حطب. قال أحدهم. ما لقينا ماء. رد الثاني. فرفع أبو زيد يده: ياللا بينا. ردهم لأبـــيهم. واستأذن أخته في أبنائها. وافقت الأخت بسرور. أخذهم (وكـــانوا أيضـــا ثلاثة: مرعي ويحيى ويونس) وفي نفس المكان أناخوا إبلهم. أولاد أختي قرصة وبكرج قهوة. قال أبو زيد ثم تلفع بعـــباءته واستلقى. بعد حوالي ربع ساعة أيقظه أبناء أخته: خال.. خـــال قـــم تغـــد وأشرب لك فنجال قهوة. عجز أولاد الأخ فردهم لأبـــيهم، أما أبناء الأخت فتصرفوا، من طرف الوثر نزعوا قليل مـــن الحشـــو وأوقـــدوا ناراً. وبحليب الناقة أعدوا القهوة وعجنوا الدقيق. وليس مهما أن (أبو زيد) سيعود، من تونس، بعد أن يهلك أبـــناء أخته، واحدا إثر الآخر. مرعي لدغه الثعبان، لمّا دلاه خاله في البئر ليملأ الدلاء. يونس كان يربط يده الجريحة بمنديل، حين لقـــى أبـــو زيد قطة؛ فرأى أن عينيها تشبهان عينيّ عليي حبيبته، طلـــب المنديل من يونس. فرد يونس بأنه خايف على جرحه من الالـــتهاب، طمأنـــه خالـــه، وأخـــذ المنديل. حجب أبو زيد القطة بالمنديل ولم يترك غير عينيها. ظل الالتهاب يزيد على يد مرعي حـــتى قتله، بينما خاله يتغزل في عينيّ القطة. ظل (أبو زيد) مع ابـــن أخـــته الثالث وحين اقتربا من تونس قال أبو زيد، الذي كان لونـــه أسودا كالفحمة، لأبن اخته الوسيم: ندخل المدينة أنت سيدي وأنا عبدك. ألقت شرطة الزناتي القبض عليهما، أودعتهما السجن؛ فنصب أبو زيد السيجة، وأخرج المخبأ في جرابه. قطع من الذهب

والفضة، أعطى لأبن أخته الذهب ولعب هو بالفضة. ما هذا الذي تلعبون به؟. سأل الحراس. حجارة من حجارة بلادنا. رد أبو زيد. في بلادكم تلعبون السيجة بهذه الحجارة!. سألوا. نعم. رد أبو زيد وأضاف: نستطيع أن نجيء لكم بالكثير مثلها. أطلقوه ليأتي بالذهب والفضة وأبقوا ابن أخته وديعة عندهم حتى يعود. غادر أبو زيد تونس بعد أن وعد الزناتي بألف مفرّع وألف مدرّع وألف عجان العجين. ما هذا الذي تقوله يا عبد؟ سأل الزناتي. إنها أنواع من الحجارة في بلادنا. قال أبو زيد الذي لا يكذب أبداً. لم يغب طويلاً قبل أن يعود على رأس آلاف من المُدرعين وفاتحي صدورهم وآلاف مثلهم يعدون لهم الطعام.

قمتُ أقتلع الجاف من النبتات المتناثرة عند قدمي الجبل، وكومتها ثم فتحت التنك وأدخلت فيه خرطوما، وشفطت إلى أن ملأت جركنا من السولار، دلقت منه على الحطب وألقيت فوقه عود كبريت.

طلب عساف (الذي سرت أسميه في سري أبو زيد) من غاليت أن تقترب من النار وتتدفأ. وحين بدأ الدفء يسري في أوصالها، رفع البندقية نحوي، ثم ألقى إليّ بغترته: قم وكتفها. تناولتُ الغترة، وشبكت يديّ غاليت، التي امتلأت رعباً، وربطتهما وراء ظهرها.

كان عساف يدور حولنا ببندقيته، مثل ضبع يبحث عن نقطة ضعف فريسته ليقضي عليها. أما غاليت فضمت فخذيها إلى بعضهما وقربتهما من صدرها. هات ورقة وقلم. قال. أحضرت

الورقـــة والقلم. اكتب.. ما أنا بكاتب.. (كدت أقول) ولكني خفت؛ فقلت ماذا أكتب. اكتب اللي اقوله لك بالإنكليزي.

بدأ يُملي، وأنا أترجم العربي الذي يمليه، ثم أكتبه بالإنكليزية. حُـط الورقة على ركبتيها. قال لي وأمر توماس أن يضبط كاميرا الفيديو عليها. وبينما توماس يقوم بضبط العدسة. زجرها عساف.. إقـرأي.. فقـرأت وهي تتلعثم: أنا غاليت. مصورة رومانية. قام الـبدو فـي سـيناء بخطفـي. لن يفكوا سراحي إلا بعد أن تقوم الحكومـة المصـرية بإطلاق سراح عودة بن سلمان. أنقذوني.. طـريقة إنقاذي الوحيدة هي أن يتم إطلاق سراح عودة بن سلمان، المحجوز لدى الشرطة المصرية. غاليت ..

قمـتُ وفككتُ يديها، وأرجعت الغترة لعساف الذي بدأ يراجع الفـيلم، ثم وضع يده في جيب جلبابه وأخرج هاتفه الجوال، سحب مـنه الكارت وألقى به إلى توماس: حطه في كنبيوترك.. وادخل ع النت.

وضـع توماس كارت الجوال في اللاب توب، وحين صار على النت، ربّع يديه منتظرا أوامر عساف، التفت عساف ناحيتي: قـل له أنـي أريد أن أسمع النداء على إذاعة البي بي سي. حمّل الفيلم على موقعيّ (البي بي سي)، و(راديو مونت كارلو). قلت، وبعد أن صمتُ للحظة أضفتُ: وعلى موقع تلفزيون الجزيرة.

بـدأتُ أفيق على وضعنا، فكرتُ في هذا الشاهق الذي وراء ظهـري، لـم يـدر بخلد أجدادنا حين رأوه كبدن أنثوي يطلع من ثوبـه، فسـموه طلعـة البدن، أن عساف سيأتي بامرأة من نساء

الـــروم، ويصـــورها عند سفحه، ويداها مربوطتان وراء ظهرها، على شريط فيديو، ويضعه على شبكة كمبيوترات عنكبوتية هائلة، ليضغط على الحكومة حتى تطلق سراح بدويّ مثله.

صـــحيح أن الحكومة المصرية ما أن تقوى في القاهرة، حتى تقبض بيدها الحديدية على سيناء، ولا شك أن أولئك الأجداد عانوا فـــي فترات القوة تلك، حيف تلك القبضة، وتحايلوا كالثعالب أحياناً لامتصاصـــها، ولكن إنترنت وكمبيوتر وبي بي سي.. هذا الذي لم أسمع به يا عساف..

تقلـــص الخوف بداخلي، وصرت أقل رهبة، فسألت عساف، الـــذي صار أقل إظهارا للعدوانية: لا يوجد عندنا أكل؟. فلم يجب واكتفى بضبط مؤشر الراديو على إذاعة البي بي سي وتقريبه من أذنه. وحين انتهى المذيع من قراءة النشرة دون أن يأتي على خبر غاليـــت، انتصـــب واقفـــاً، توجه نحو السيارة، فتح الباب، وجلس وراء المقود، وضع المفتاح.. وذهب دون أن يقول كلمة واحدة.

قـــال تومـــاس: نهرب. أين نهرب حتى نصل لأقرب بشر، نحـــتاج أكـــثر مـــن خمـــس ساعات. قلتُ. ماذا سيفعل بنا؟ سأل تومـــاس. لا شـــيء. أجبـــت وأنا أنظر إلى غاليت التي صارت عاجـــزة تمامـــا عن النطق. أتيت بالماء وسقيتها، ثم رششت على وجهها ورأسها.

بعـــد أقل من ساعة ونصف رأينا السيارة عائدة. هبط عساف وفي يد كيس بلاستيكي، وفي اليد الثانية جركن ماء، أكلنا وشربنا شـــايا وصـــرنا أقل خوفا، بينما قلق عساف يصّاعد. أخذ الراديو

وجلـــس في المكان الذي اختاره لنفسه، على حجر في سفح الجبل فـــوق رؤوســـنا بـــأقل من عشرة أمتار، ينظر إلى ساعته ويقلب الراديو بين محطتي البي بي سي ومونت كارلو.

سيناء- طلعة البدن/ فبراير 2005

المراجع:

1- الكتاب المقدس.
2- تاريخ سيناء/ نعوم بك شقير.
3- لورنس/ أنتوني ناتنج.
4- شارون قيصر إسرائيل/ عوزي بنزيمان

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET